الاضطرابات النفسية

الاضطرابات العصبية - الاضطرابات الجنسية

تأليف

سيجموند فرويد

ترجمة

عصام سليمان

الكتاب: الاضطرابات النفسية.. الاضطرابات العصبية – الاضطرابات الجنسية

الكاتب: سيجموند فرويد

ترجمة : عصام سليمان

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail: info@bookapa.com**

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

فرويد ، سيجموند

الاضطرابات النفسية.. الاضطرابات العصبية – الاضطرابات الجنسية/ سيجموند فرويد, ترجمة : عصام سليمان

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١١٧ ص، ١٨ *٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٨ – ٣٤ – ٦٨٣٧– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ١٤١٩٠ / ٢٠٢٠

الاضطرابات النفسية

الاضطرابات العصبية - الاضطرابات الجنسية





مقدمة

علم النفس حديث العهد، انبثق نوره مع ظهور مدرسة سيجموند فرويد وظهور نظرياته وتعاليمه وتلاميذه وأنصاره. بدأ سيجموند فرويد حياته العلمية باتجاه نحو دراسة الأمراض العصبية ومن أجل ذلك سافر إلى باريس للبحث والتنقيب، فاتجه نحو الأستاذ «شاركو» فعمل معه فترة وكان له نشاط ملموس، ثم عمل فترة أخرى مع «جوسيف بروير» الاختصاصي في الأمراض العصبية أيضًا، وكان للأستاذ بروير معهدا لِمُعالجة مرضاه المصابين بالهستريا واللطشات العصبية، فكان يلاحظ أن المرضى يتذكرون وهم تحت تأثير التنويم المغناطيسي بعض التجارب والآلام التي مرت بهم في حياتهم الماضية، بينما إذا استيقظوا لا يذكرون شيئًا من هذه التجارب أو الآلام، كما لاحظ أيضًا أنهم بعد أن يستيقظوا من غفوتهم إذا ذكر لهم ما تحدثوا به وهم نيام تحسنت حالتهم الصحية، وقد استنتج بروير أنه طالما كانت هذه الأسرار والذكريات غائبة عن نفس المريض راسبة في القاع بعيدة عن وعيه فمرضه سيستمر؛ لأن هذه الذكريات تسيطر طوال حياته على سلوكه وتصرفه.

وقد لاحظ فرويد أيضًا أن هذا التحسن الناجم عن كشف الأسرار بالتنويم المغناطيسي يبعث إلى قلب المريض تحسنًا مؤقتًا لا يلبث أن يزول، كما أن كثيرًا من المرضى يصعب تنويمهم المغناطيسي. راح يبحث عن وسيلة أخرى يُمكن أن يصل بها إلى منطقة العقل الباطن أو منطقة اللا

شعور حتى توصل إلى فكرة التحليل وهي أن يرقد المريض مُسترخيًا استرخاءً تامًا حتى يصل إلى حالة تشبه الغفوة، ثم يتحدث إلى طبيبه عن كل ما يمر بذهنه من ألفاظ وحوادث مهما كان نوعها وما فيها من سخف أو عدم تسلسل أو أمور مكروهة ومخجلة أو تافهة أو سخيفة أو أن يكون فيها حديثًا قد يسئ إلى الطبيب نفسه أو إلى بعض الناس، ويظل الطبيب يدرس مريضه ويرقب حركاته وانفعالاته، وبذلك يمكن له أن يستقرئ نفسيته.

وقد لاحظ فرويد أن المصابين بأمراض عصبية مصابون باضطرابات جنسية وثيقة الاتصال بهذه الاضطرابات النفسية، وهداه التفكير أيضًا إلى أن الغريزة الجنسية هي مرد كل الأزمات النفسية، فراح ينسب كل انفعال عصبي أو نفسي إلى الغريزة الجنسية، فاعتقد أنه إذا تمكن أن يصلح من شأن هذه الغزيرة ليجعلها تسير في الطريق السليم فقد تمكن من أن يقطع الشوط الطويل في سبيل الشفاء. ومدرسة فرويد هي النور الذي أشع ضوئه على العالمين فبدد الغشاوة التي غمت قلوب الكثيرين، ونحن إذ ننقل فنًا جديدًا وجميلاً من فنون الغرب إلى العالم العربي إنما نأمل أن نسدد الفراغ الشاغر في المكتبة العربية.

المترجم

تمهيد

هل استيقظت مرة في حياتك صباح أحد الأيام فوجدت نفسك منقبضًا كئيبًا مهمومًا حزينًا دون أن يكون هناك سبب أو داع لذلك الشعور البغيض؟!. وهل لاحظت على نفسك أنه يحل بك أحيانًا مباشرة وبغتة ودون سابق إنذار شعور بالضيق أو الاضطراب، دون أن يكون هناك أيضًا داعيًا أو سببًا لذلك. ثم بعد ذلك يختفي هذا الإحساس السقيم مرة واحدة كما جاء مرة واحدة ويحل محله ارتياح وشعور بالسعادة، غير أن هذه الأعراض تُعاودك مرة أخرى خلال نفس اليوم أو في يوم آخر.

وهل لاحظت أنك تذهب إلى عملك وأنت منشرح الصدر فتقابلك كومة كبيرة من الأمور التي تحتاج منك نشاطًا ولكنك ترجئ النظر إليها لحظة ثم لحظة، ثم ينتابك الملل والتعب فتهمل واجبك على مضض، ثم تجلس لتفكر فيطوف في ذهنك آلامك ومتاعبك وسوء حظك، ثم تدور بك الدوامة وتغرق في تفكير عميق وتظل معدوم الحيلة لا تستطيع أن تفعل شيئًا، فتجلس مكتوف اليدين إلى أن يتصدع رأسك ويتصدع عملك وتعجز عن أن تقوم بواجبك خير قيام.

إن مرد ذلك كله هو الانهيار النفسي وسقوط الأعصاب فريسة للأعباء الثقيلة التي فرضتها طبيعة المجتمع وظروف الحياة، فالصراع الشديد بين الرغبات العميقة في النفس وبين واجب الحياة وتقاليد المجتمع تؤدي إلى تفتت الأعصاب، وأنت مهما حاولت أن تفر من الهموم والأحزان التي تلاحقك وتسري في نفسك فأنت خاطئ وعاجز غير قادر، وسرعان ما تعثر رجلك وتسقط فريسة الانهيار العصبي، لأن الهموم شأنها كالظل الذي يُلازم الانسان، تلاحقه وتتابعه وتكيل له الضرب حتى يسقط تمامًا ويصبح طوع إرادتها.

وإذا ما بدأت بك سلسلة الهموم فستزداد الحال سوءًا وتزداد أعصابك توترًا وصلابة، ويزداد بك العناد ويشتد بك الخوف حتى تمسي عاجزًا عن التفكير السليم، فيداخلك الشك والريبة في كل ما يحيط بك، وقد تشتد بك الحالة سوءًا وينتهي بك المطاف إلى الانتحار فتطلق على نفسك الرصاص أو تقفز من النافذة أو تبتلع السم، وإذا حيل بينك وبين الانتحار فقد ينتهي بك الطريق إلى الهوس أو الجنون فينقطع حبل تفكيرك المنطقي وتنعدم السلسلة الطبيعية في تركيز الذهن فتقفز من موضوع إلى موضوع وتتخبط من فكرة إلى فكرة ويمسى كلامك فارغًا خاليًا من المعنى.

وقد يُصاب المريض بفترات ضئيلة من الابتسام فيشع النور ولكن هذا الإشعاع مؤقت مثله مثل «حلاوة الروح» سرعان ما يختفي ويندثر ويحل محله الانهيار النفسي العنيف.

وهذا الانهيار النفسي الذي يأخذ مظاهر مُختلفة من الاضطراب العصبي مرده في جل الحالات إلى الناحية الجنسية، فطالما كان الإنسان قلقًا غير مستقر في حياته العاطفية طالما ارتدت صورة هذا القلق على حياته العامة والخاصة، وأنت إذا حاولت أن تُفسر الانفعالات العصبية والانهيار النفسي وحالات الغم والكآبة التي تعترى البشر فيجب أن تعود فيها إلى حياة المريض الخاصة، وإلى رغباته الدفينة في العقل الباطن ونزعاته الكامنة في اللاشعور، لتجد أن هذه النزعات الدخيلة هي التي تكيف شخصيته وتبلور حياته لما يناسب المجتمع.

ولا شك أن للوظيفة الجنسية أثر كبير في المجتمع، إذ أنها أقوى عامل في حياة الفرد، فإذا ما تهدم كيانها أو انعدم أو اختل نظامها كان لها أكبر الأثر في انحلال الشخصية وانهيارها.

وفي البيئة العنيفة التي يعيش فيها مجتمع اليوم وما فيها من تيارات نفسية وعوامل مختلفة نجد أن صرعى الانهيار النفسي يزدادون في حدتهم وفى أحزانهم فتتضارب النزعات العاطفية مع النزعات المادية مما يزيد في آلام البشر الحزين.

وفي المجتمع الراقي الذي ازدادت عليه تكاليف الحياة والتقاليد العامة نجد أن الانهيار النفسي أشد منه في البيئات الدُنيا، لأن الإنسان الراقي مسئول عن تصرفاته أمام الله والقانون والعرف والمجتمع والضمير، وأنا إذا

قلت الضمير فأقصد الصمام النفسي، لأن الذي يحمل ضميرًا حيًا يكون أشد الناس تعرضًا للانفعالات النفسية؛ لأن ضميره له دائمًا بالمرصاد.

والذين يُصابون بالانحرافات الجنسية يشعرون بالسعادة عندما يُمارسون تلك الانحرافات، ولكن منبع الخطر عليهم عندما يتنبه الضمير ليحول دون رغباتهم الشاذة، عندئذ يقعون صرعى ذلك التشدد النفسي وصرعى الانفعالات.

وأنت مهما حاولت أن تُفسر الانهيار النفسي فمرده دائمًا – كما تقول مدارس علم النفس الحديثة – الانحرافات الجنسية، فالرجل الذي يُعاني ضعفًا جنسيًا لا شك أن قلبه يمتلئ غيظًا وحقدًا على العالم الذي حرمه من أكبر ميزة طبيعية فيمسي إنسانًا حقودًا غيورًا حسودًا جبانًا، وكثير من الجرائم البشرية سببها الضعف الجنسي، ذلك لأن المريض يشعر بمركب النقص مما يدفعه إلى ارتكاب الجرائم التي قد لا تمت إلى الجنس بصلة، لغرض الانتقام من البشرية لكي يثبت لنفسه أنه يتمتع بقوة قد تفوق ما يتمتع به الإنسان العادي.

ولقد حدثتنا بعض قصص الريف أن رجلًا قتل زوجته سابع يوم زواجه منها – فقد ذبحها كالشاه ثم مزق جسمها إربا ثم أشعل النار فيها – لأنها كانت تعيره بضعف في حياته الجنسية، ومع أن لهذه القصة مُلابسات جنسية أُخرى إلا أن الدافع الكبير فيها هو شعور الرجل بالذلة والضعف وما أحسه بخدش في كرامته – وأن المرأة التي تُعاني البرود الجنسي امرأة

شقية حزينة – ومع أنها قد تكون وفية مُخلصة لزوجها إلا أنها في الوقت نفسه تطوي أحزانها في قلبها وتعيش معه محرومة من نداء الطبيعة، وهذا الحرمان يُؤدي في كثير من الأحايين إلى الانهيار العصبي أو الخيانة الزوجية، فالجنون أو الجريمة.

والرجل الذي تضطرب حياته الجنسية يُعتبر أبأس المخلوقات طرأ، فهو يشعر في داخلية نفسه بالنقص والألم، وتُصاب كرامته وعزة نفسه بطعنة، وهو لا يعتبر نفسه رجلًا كاملا بالمعنى الصحيح، وهذا الاضطراب يجعل الزواج مُستحيلًا أو يقلب جنته جحيًما لا يُطاق بالنسبة للرجل أو المرأة، مما يُمزق أواصل الصلة العائلية ويهدم كيان الأسرة.

ولا شك أن حياته العملية تتأثر بالتيارات النفسية التي تجتاحه وسيتأثر عمله وإنتاجه بالحالة المرضية التي يُعانيها.

ويعتقد الكثير أن البرود الجنسي في المرأة من الصفات اللازمة لحفظ عفافها وعدم اندفاعها وراء الشهوات، إلا أن هذا الرأي خاطئ، فالمرأة الباردة قد يدفعها مركب النقص وعدم الإحساس بالسعادة الزوجية إلى الشجرة المحرمة لتحاول قطف ثمارها فتشبع نفسها مما عجز عنه الحلال، وثمة نكبة أُخرى يُعانيها المجتمع من جراء البرود الجنسي في المرأة ذلك أن المرأة بطبيعة تكوينها وبحكم البيئة وبحكم خلقها ونشأتها وبحكم التكوين البيولوجي أقل من الرجل إفصاحًا عن حقيقة أمرها ومن ثم تدفن أحزانها في

قلبها دون مُحاولة العلاج خشية أن يُظَنْ بها بعض الظنون، فتعيش في هزال نفسي يتهادى بها تدريجيًا إلى أن يصل بها المطاف إلى الانهيار العصبي.

وأنت إذا حاولت أن تلمس الخيط الذي يشع السعادة على البشرية فيجب أن تعرف أن نوره ينبت من الانسجام الجنسي والتجاوب العاطفي بين الزوجين.

وللأحزان الجنسية خداع نفسي يُخدر خلايا الجسم، ولكي أُوضح لك صحة هذا الكلام أضرب لك مثلًا بالسرج المشدود على جواد مجروح فأقول:

لعلك لاحظت مرة جوادًا يتألم من جرح في كتفه بسبب السرج المشدود عليه، فعندما يأتي سيده في الصباح ليضع السرج على ظهره يتقهقر وتتقلص عضلاته مما يُؤكد أنه يتألم، وبعد أن يشد السرج ويحتك بكتفه فترة لا يعد يحس بالألم ويظل يعمل طوال النهار رغم الجرح ورغم احتكاك السرج وكأن كتفه على ما يرام، وإذا حللت أربطة السرج في المساء وحاولت أن تلمس الجرح بيدك نفر وتراجع فقد عاد إليه الألم، وتفسير ذلك أن احتكاك السرج بالجرح أحدث عنده تخديرًا في أطراف الأعصاب التي تمتد إلى الجرح، ويستمر هذا التخدير طالما كان الاحتكاك باقيًا، فإذا حل السرج وبطل الاحتكاك عاد الألم.. إن الألم موجود ولكنه يتخدر بتأثير الضغط العصبي الشديد.

وهذا عين ما يحدث عندما تُخادعك النزعات الجنسية فتسير في طريقك وأنت معصب العينين ناسيًا أن التوتر العصبي أو الانهيار النفسي هو النتيجة الحتمية لذلك الحال، وأن أشد الأمور غضاضة إلى النفس تلك التي يكون بها الضمير حيًا وحين يحس الإنسان أنه يأتي جرمًا؛ فاللص الذي يستبيح سرقة سيده يجد لنفسه مُبررًا لجريمته بحجة أن سيده لا يعطيه أجرًا كافيًا لمجهوده الذي يبذله.. هذا اللص يشعر بسعادة المال وبلذة السرقة لأن فيها مكسبا ماديا.. أما اللص الذي يسرق ثم يحدث له ما ييقظ ضميره كأن يضبطه سيده ثم يعتقه، أو تصادف مثلًا وقابل شيخًا طاهرًا راح يُحدثه عن الأمانة، أو وقع في يده بُرهان سماوي عن شرور السرقة.. إلخ.

لا شك أن العقاب النفسي والندم الذي يحل باللص عقب السرقة يفوق كل العقوبات؛ فإذا فرضنا أن سُبل الحياة وقفت أمام اللص حتى بات عاجزًا عن الحصول على لقمة العيش إلا عن طريق السرقة مع ما يُقاسيه من يقظة الضمير وعقاب النفس والندم.. ما تظن أن تكون النتيجة؟!

قد لا يجد مخرجًا من الأزمة النفسية التي حلت به غير الانتحار للهروب بجلده، أو قد يلجأ إلى البوليس ليُسلم نفسه.

وإن قصة «البؤساء» لـ «فيكتور هوجو» أكبر دليل على ما نقول، ففي هذه القصة نرى أنهم قد أخذوا بريئًا وراحوا يُعاقبوه على جرائم

اقترفها آخر، أما المجرم الأصلي «جان فالجان» فقد أمعن في الاختفاء، وحمد الله على النجاة بجلده، ولكنه لم يلبث طويلًا حتى ثارت نفسه وثار ضميره معها ولم يسترح له بال حتى سلم نفسه للمسئولين، واعترف للقضاء بحقيقته.

ولا شك أن كثيرًا من اعترافات المُجرمين أمام القُضاة مردها ثورة الضمير والرغبة في التوبة، ولعل الاعتراف للقسيس في الكنيسة الكاثوليكية سببه الرغبة في إزاحة العبء الثقيل الذي تحمله النفس؛ ففي الاعتراف تخلص من الذنوب ونوع من التوبة، وهذا الاعتراف يشبه عملية التحليل النفسي عندما يجلس المريض إلى الطبيب فيلقي بكل همومه على مرشده طالبًا منه النصح والمعونة.

وكما يثور ضمير الفرد يثور ضمير الجماعة ويغضب للعدل، فقصة دريوفوس الضابط الفرنسي الذي حوكم خطأ أمام محكمة عسكرية ثم حكمت عليه بإرساله إلى جزيرة الشيطان وغضب من أجلها «إميل زولا» الكاتب الفرنسي الشهير بعد أن تأكد من براءة المتهم وبعد أن تأكد من أن المحكمة التي حكمت على دريوفوس، ظهر لها دليل براءته ولكنها أصرت على حكمها خشية التراجع، هذه القصة التي ثار لها «إميل زولا» وثار معه شعب فرنسا، انتهت بعودة البريء إلى داره بعد أن قضى فترة في جزيرة الشيطان يُقاسي الرعب والخوف، وكانت عودة دريوفوس إيذانًا بعودة العدل إلى نصابه.

وهذه القصة «دريوفوس وإميل زولا وشعب فرنسا» إن دلت على شيء فعلى الصراع العنيف الذي يقوم بين الرغبة والضمير، والتي تثبت أنك مهما حاولت أن تخفي الرغبات الكامنة تحت ستائر فضفاضة فإن قوة الضمير ويقظة الشعور كفيلة بأن تُمزق تلك الستائر وتكتشف الحقيقة.

فالمرأة التي تخون زوجها تقف مثاليتها يقظة تُحاول أن تحول بينها وبين ما تريد، ولكنها تُحاول أن تُبرر المسألة لضميرها فتكذب على نفسها وتزعم أن زوجها غير مُخلص لها، وأن ما تقوم به إنما بدافع الانتقام، أو تُحاول أن تزعم بأنها في حاجة إلى نقود وأن ما تفعله إنما لتزيد من ثروتها، وقد ينكمش ضميرها خوفا منها.. وهي عندما تبدو في مظهر السعيدة التي تستملح الواقع إنما تُخادع نفسها وتكذب عليها؛ ففي قرارة نفسها ترسخ فكرة الندم والحزن العميق، وفي هذا ما يُفسر لنا معنى البكاء الشديد الذي تلجأ إليه فتيات الهوى في المساء المُتأخر عندما يهجعن إلى بيوتهن بعد مجهود اليوم، وفى هذا أيضًا ما يُفسر لنا أسباب الأحزان التي تنتاب الإنسان من حين لآخر دون أن يعرف لها سببًا، على أن السبب الحقيقي هو الحزن العميق الراسخ في قاع العقل الباطن، هذا الحزن الذي يطفح من حين إلى حين على السطح.

وأنت إذا حاولت أن تعرف أسباب الانهيار النفسي فيجب أن تعرف أصل العلة وسبب الداء لتجد أن مرده كله يعود إلى التعطش الجنسي.

ولقد قيل أن للجنس كل الأثر على تكوين الشخصية فسوء الطبع مثلا وسمعة الإنسان والانحرافات وسوء الخلق.. إلخ، مردها الناحية الجنسية؛ فاللص الذي يسرق مثلًا يكون الدافع له عن طريق مُباشر أو غير مُباشر هو الجنس، فقد تكون وراء السرقة امرأة تدفعه للجريمة كي يشبع رغباتها المادية، مما يُؤدي به الطريق إلى العثرة فالسقوط فالوقوع في السجن.

فالذي يتحكم في تصرفات الإنسان هو الأعصاب ويتحكم العقل في العصب وتتحكم الغريزة في العقل فكان السلطان المُسيطر على الإنسان هو الميل الجنسي، وكأنك إذا عالجت أي عقدة نفسية يجب عليك أن تُعالج أولًا الانحرافات الجنسية والرغبات المكبوتة والنزعات الدفينة في العقل الباطن، أولًا وقبل كل شيء ذلك لأنها هي التي تملي سيطرتها على الإنسان، وبالتالي تتحكم في شخصيته.

وأنت مهما حاولت أن تغالط بسمات الحياة أو ثورة الطبيعة فأنت خاطئ، فتحديك للريح العاصف سيقتلعك، ووقوفك تحت وهج الشمس سيذيب جسدك، والنزعات الجنسية ومضة من الطبيعة لا يُمكن تغاضيها وإنما يُمكن تنظيمها.

وأنت إذا تغاضيت عن ميول ابنتك وزوجتها برجل لا تحبه فقد أخطأت في حق الفتاة وفي حق المجتمع، وقد قضيت برعونة تفكيرك وعنادك على مستقبل عائلة، فالرجل العاقل هو الذي يسأل فلذاته من

وراء حجاب حتى يُمكن له أن يدرك التيارات الخفية التي تدور في أعماق السريرة، وبذلك يكيف المسألة على ضوء الواقع.

وقبل أن أختم حديثي يجب أن أذكر مسئولية الأب في توجيه أبنائه وبناته، ومسئولية الأم أيضًا في توجيه أبنائها وبناتها، فعلى الوالدين أن يرعيا فترة الطفولة لأن وقت الطفولة هو أخطر الأوقات التي تمر بحياة البشر ففيها تتكون الشخصية وينغرس الأساس الذي يقوم عليه بناء المستقبل.

وليست حياة الطفل خالية من الجنس كما يزعم الناس وليست الأطفال مُجردة من الخطايا تعيش مع الملائكة الأطهار، فخيال الطفل ملئ بكل أنواع الشرور الجنسية، ذلك لأنه في ذلك الوقت يكون معدومًا من العقل المُميز أو الضمير، ويكون الوالدان حينئذ مسئولين ماديًا ومعنويًا عن حياة الطفل سواء الجنسية وغير الجنسية.

وثمة نظرة أُخرى إلى عهد الطفولة، نجد أن الميول تتكون في ذلك الوقت وتنغرس الطبائع، فالطفل الذي يمهله والداه ويتركاه في أيادي الخادمين والخادمات إنما يجرمون في حق أنفسهم وحق فلذاتهم، وسيشرب هذا الطفل من الماء المُلوث الذي يعيش فيه، وسينضج ويكبر وسيجعل من الخادمين والخادمات مثلًا أعلى له ونورا يستضئ به، وناهيك ما لهذا الوضع من أثر على نفسه ومستقبله.

والغافل عن بيته أشبه بربان الباخرة الذي ترك باخرته ترتطم بالعواصف وراح يعبث بزجاجة الخمر، وإذا كان الأب بمثابة الربان فالأم

بمثابة السفينة التي تحمل المسافرين، ويجب قبل أن تقلع السفينة أن تكون خالية من الثقوب وأن يشرف عليها ويمسك بدفتها ربان ماهر.

المترجم

اللاشعور - العقل الباطن

كانوا يعتقدون فيما مضى أن الذي يتحكم في تصرفات الإنسان هو عقله وتفكيره دون أن يقيموا وزنا للعقل الباطن أو اللاشعور، أما الآن وعلى ضوء الأبحاث الجديدة يجب أن نعرف أن الذي يتحكم في الإنسان وفي تصرفاته ويكيف شخصيته، هو العقل الواعي أو العقل المُميز بالاشتراك مع العقل الباطن أو اللاشعور، فالعقل الواعي أو العقل المُميز هو ذلك الجزء من العقل الذي ندرك به ونفكر به ونرى به الكثير من المحسوسات والمعنويات، وهو الذي يهدينا الصراط وينير لنا الطريق ويوضح لنا الخير ويبتعد بنا عن الشر. أما العقل الباطن أو اللاشعور فهو أبعد أثرًا في حياتنا النفسية من العقل الواعي فهو الحيز الكبير من العقل الذي حوى كل الأشياء وكل الذكريات منذ مولد الطفولة حتى الآن وحوى المسائل المُحزنة والمؤثرة المُخزية والمؤسفة، وحوى أيضًا المسائل السعيدة والمُبهجة والمفرحة، أعني أنه حوى كل المسائل التي نظن أنها ضاعت في عالم النسيان والتي نظن أنها تلاشت من فكرنا.

وهذه المسائل في الواقع لم تضع أو تتلاشى وإنما ذهبت إلى عالم العقل الباطن لتعيش فيه، فمثلًا إذا حدث أن أتيت أمرًا مُنكرًا وأنا طفل في الخامسة من عمري، ثم حدث أن دارت عجلة الزمن وذهبت تلك الواقعة إلى عالم النسيان، فمرور الأيام في الواقع لم يُنسني تلك الواقعة

بالمعنى الصحيح وإنما ألقى بها في قاع العقل الباطن ولتظل كامنة هُناك تعيش فيه.

وهذه الواقعة التي رسبت في القاع تظل كما هي ثم يحدث بعد ذلك أن تجئ وقائع أُخرى فتتراكم فوقها وهكذا. حتى أبيت لا أذكر شيئًا عن الواقعة الأصلية، فقد تراكمت عليها الحوادث كما تتراكم الأتربة فوق الكتب فتحجبها.

وأني أظن أن الحادثة الأولى ضاعت في عالم النسيان وعالم الأتربة، ولكن الواقع يقول لي أنها رسبت في قاع العقل فإذا حدث ما يهيج تلك الواقعة بعد ذلك فلا تلبث أن تطفح على السطح فأتذكرها أو أتذكر ملابساتها، وقد تكون بعيدة عني فلا أتذكرها ولكنها موجودة ووجودها له تأثير على شخصي وتصرفاتي، فالعقل الباطن إذن هو المكان الكبير أو الحيز الذي ترقد فيه المدركات الواسع والأفكار وتنحدر من الشعور فيختزنها.

إنه قد يحدث أن نركز كل فكرنا واهتمامنا في لحظة ما من لحظات الحياة على موضع فيشغل تفكيرنا ويجعلنا لا نحس بما يجري حولنا من المظاهر العديدة التي تحيط بنا ولا نهتم لها، ونحاول أن نصل إلى غايتنا من التفكير فيما نريد، ولكننا نعجز أن نصل إلى ما نريد، ثم نستفيق إلى أنفسنا لنجد أمام وعينا أشياء لم نكن نفكر فيها أو نحس بوجودها.. هذه الأشياء أفكار وذكريات كانت مُختزنة في اللاشعور، ووجدت في هذا

السرحان الفكري والشرود الذهني فرصة مُناسبة لأن تطفح على السطح إلى منطقة الشعور من العقل.

ولعلك لاحظت مرة أنك قد نسيت اسم صديق لك فحاولت أن تتذكر اسمه بكل الوسائل المُمكنة، ولكن عبثًا تضيع محاولاتك في اللحظة التي تريدها، وفي فترة ما من فترات حياتك تجد أن هذا الاسم قد ظهر مرة واحدة في فكرك وتذكرته بغتة وجرى على لسانك دون جهد أو تعب.. إن ظهور هذا الاسم مرة واحدة دليل على أنه لم يكن قد انمحى تمامًا من وعيك وأنه ذهب عنك إلى الأبد، وهذا دليل قوي على أنك لم تكن قد نسيته، فهو إذن كان مُخزنًا في العقل الباطن وكان تائهًا في اللاشعور.

وهذا العقل الباطن أو اللاشعور هو المكان الذي تختزن فيه تجارب الإنسان والحوادث التي مرت به في جميع أطوارها ومراحل تطورها منذ نشأتها البدائية إلى الوقت الحاضر، أعني منذ نشأة الولادة حتى هذه الساعة التي تقرأ فيها كلامي هذا.

والعقل الباطن هو الحقل الذي اختزنت فيه صورة التوحش الإنساني الأول وهو المكان الذي تعيش فيه الغريزة الأولى قبل أن تمتد المدينة بالتهذيب والتحضر، وهو البيت الأول الذي تعيش مدارك الطفولة بما فيها من جنون وشذوذ وخلو من المسئولية.

ولعلك لاحظت الكتاب أو الشعراء عندما يذهبون إلى خلواتهم يستلهمون الوحي لصياغة أشعارهم وخيالاتهم وتفسير «استلهامهم الوحي»

أنهم يُحاولون أن يذهبوا إلى منطقة اللاشعور ليأتوا بالخيال، فالشاعر أو الكاتب البليغ هو الرجل العميق الذي يُمكن له أن يصوغ فلتات ماضيه في قالب فني بديع ليُقدمه إلى القراء في صورة قصة أو رواية، من هُنا كان الكتاب والشعراء والمصورون والرسامون والنحاتون وأهل الفن جميعًا، كان لهم المقدرة الكبيرة في استيعاب الماضي من اللاشعور البعيد الغور.

ومن هنا أيضًا كان أهل الفن أكثر الناس تعرضًا للانهيار النفسي ذلك لأن أعصابهم مُفتتة وهم أكثر الناس تعرضًا للجنون، لأن الخوف عليهم من أن يضلوا في بحر اللاشعور وهم يعيشون في الخيال الذي يبحثون عليه؛ فيعجزون عن العودة إلى الحياة الطبيعية.

وليس العقل الباطن محجوزًا عن العقل الواعي بطبقة فاصلة بينهما أو بسياج يحدهما عن بعض، فالاتصال قائم بينهما ولكن الميدان بين العقل الواعي والعقل الباطن «مائع» والأفكار في منطقة الميدان المائع «مائعة» وتختلف قوة اللاشعور باختلاف قدمها؛ فالمسائل التي تاهت في اللاشعور والتي تطفح إلى العقل هي المسائل القريبة الحدوث، وأنت سريع تذكر الأمور القريبة الأحداث عن البعيدة عنها.

واللاشعور خاضعًا لسلطان الشعور، أعني أن العقل الباطن خاضع للعقل الواعي، فأنت إذا أخذت مُخدرًا أو تناولت خمرًا تخدر العقل الواعي وانتهز العقل الباطن هذه الفرصة وراح يروض سلطانه فيضطرب تفكيرك وتغفل عن نفسك فتشعر كأنك تتحرر من تقاليد المجتمع وتحس بجبروت

وبقوة فوق طاقتك فإذا ما زاد تأثير الخمر مثلًا أو المجر زاد تحرر العقل الباطن وزاد تحرره من القوانين فينزع إلى المشاجرة والإجرام، كما قد يلجأ إلى القتل أحيانًا فإذا ازداد تأثير الخمر بفعل الإدمان تخدر الشعور وتخدر معه اللاشعور أيضًا وفقد السيطرة على نفسه وعلى بقية أجزاء جسمه انشل الجهاز العصبي والفكري وبت غير مدرك أو شاعر لما يدور حواليك وتعطلت وظائف الحياة فيك فتتقيأ مثلًا أو تتبول، وتعجز عن المشي وترتمي في الأرض.

والدور الذي يلعبه العقل الباطن في حياة الإنسان كبير جدًا وقوي وله السيطرة العُظمى على تصرفاته، وهُناك صراع قوي بين العقل الواعي – ويقف إلى جانبه الضمير – وبين العقل الباطن، فالعقل الباطن يُريد أن يشبع الغرائز البدائية ويشبع النهم الإجرامي الذي يتردى فيه بما في ذلك من شذوذ وعقوق للمجتمع، فهو يريد أن يحقق نزعاته ورغباته الغريزية التي لا تتفق في كثير من الأحايين مع سنة الكون وناموس الآداب العامة ورغبات الحياة والتقاليد والعرف وأوضاع المدنية، ومن ناحية أخرى يقف الضمير بالمرصاد ليمنع شرود الإنسان ويردعه وينبهه إلى الخطر وينتهي الصراع بأن يكبت الإنسان تلك الرغبات الثائرة فكأن الكبت وسيلة من وسائل التخلص من النزعات الإجرامية، فمثلًا إذا تعرض لك إنسان بكلمات نابية أو آذى شعورك أو صفعك على خدك فإنك تثور وتُفكر في الانتقام منه بأن تطعنه بسكين مثلًا، ولكن هذا التفكير منك لو خرج إلى حيز التنفيذ فسيعرضك إلى مؤاخذة البوليس مما لا يتفق وكرامتك، فتتغاضى عن الانتقام وطعنه بالسكين مُكتفيًا بكلمات تردها له.

ولنضرب مثلًا آخر فنفرض بأنك تعرفت إلى فتاة استملحتها وفكرت في مغازلتها، ثم اكتشفت أنها صديقة لزوجتك أو زوجة لصديقك؛ فسرعان ما تطرد هذه الفكرة مجاملة منك لصديقك أو لزوجتك وحسما للفضيحة فتكبت الفكرة لكن قد يحدث أن تجئ ظروف أخرى فوق طاقتك كأن تجتمع بها في خلوة أو في مناسبة وليس معك غير الشيطان فتثور فكرة الرغبة فيها وقد تنجح في الابتعاد عنها وتفلت من براثن الشيطان ولكن بعد أن تكون استنفدت قوة كبيرة من طاقتك، فإذا تكررت الفرص بالاجتماع معها فقد تجد أن الصراع النفسي مع الضمير وصل إلى حد كبير جدًا مما يعجز الضمير عن صده فتسقط في الهوة.

وإذا فرضنا مثلًا أن شابًا بدينا يُمارس العادة السرية ثم قيل له أن هذه العادة تُخالف أوامر السماء وأنها مجلبة للأمراض الصدرية مثلًا كالسل فيحاول أن يمتنع عن هذه العادة وقد ينجح في مُحاولته فإذا حاول بعد ذلك الاقتراب من النساء كمنفذ لغريزته الجنسية وقف ضميره له بالمرصاد لأنه يعرف عقوبة الزنا فيعود إلى العادة السرية مرة أخرى ويُحاولها ثم يتردد، ومن بين التردد والإقدام يقع فريسة للاضطراب العصبي، ذلك أن نفسه تريد إتيان هذه العادة السرية بينما ضميره يحول بينه وبين ما يريده، وفي غمرة الاضطراب العصبي قد يُصاب بشلل هستيري في يده.

وإن الأمراض التي تصيب الإنسان من العادة السرية، التردد الذي يسبق العادة والندم الذي يحل به بعد ذلك؛ فالندم النفسي أشد ضررًا من العادة نفسها.

وإن كثيرًا من الجنود الذين فقدوا ذاكرتهم في ميدان القتال أو أُصيبوا بشلل في أجسامهم إنما أُصيبوا بأمراض نفسية، فالخوف من الموت قد أوجد حالة مرضية هستيرية تبدو في صورة شلل حتى يكون بمثابة عذر قوي يمنعه من الذهاب إلى القتال.

وكثير من أمراض الضعف الجنسي في الرجال مردها الحالات النفسية، فالرجل الذي يتزوج امرأة لا يحبها ولا يميل إليها قد يجد نفسه ضعيفًا أمامها، ففي ذلك عذر كفيل بالبُعد عنها، كذلك نجد أن سببًا من أسباب البرود الجنسي في المرأة هو كراهيتها للرجل، فكأن لسان حالها يقول له «أنا لا أحبك ولذلك لن أعطيك شيئًا من عواطفي».

وكما قلنا أن العقل الباطن مخزن للذكريات العميقة البعيدة الغور وأن الإنسان يحتفظ في ذلك المخزن بمغامراته النفسية نجد أن الطفولة تحتل حيزًا كبيرًا منه.

وفي الطفولة تبرز الأم أبرز عامل فعال في حياة ابنها لأنها هي التي تطعمه وهى التي تشرف عليه وهي التي تمده بإكسير الحياة، عندئذ ترسخ صورة الأم في ذهن الطفل كرمز للحب القوى فيتعلق بها تعلقًا عاطفيًا، وهذا التعلق العاطفي لا يخلو من الخيالات الجنسية، فإذا شب الطفل ظلت صورة الأم حية في ذهن المريض، كرمز لغرامه الأول، فإذا نضج الطفل وبلغ سن الرجولة، راحت صورة الأم الكامنة في العقل الباطن تتماوج في ذهنه البعيد تُحاول الصعود لتطفو في العقل الواعي، ولكن

الضمير وتقاليد المجتمع تمنع تلك الصورة من الصعود وتكبتها إلى القاع، ومن هُنا يظهر شبح الأم في الأحلام كمنفذ لرغبات اللاشعور..

وكما يُقال عن الميل العاطفي للأم يُقال عن الأخت أو العمة أو ابنة العم أو ابنة العمة أو الخالة أو ابنتها أو أي فتاة أخرى جالت أمام ناظريه، فالأحلام هي النافذة التي تطل على العقل الباطن ومنها يمكن أن تدرك الرغبات الكامنة التي تعيش في النفس، كما تظهر تلك الصور أيضا في أحلام اليقظة خلال سرحان الفكر وشرود الذهن وفى فلتات اللسان.

والأحلام مزيج من المرئيات اليومية مُختلطة بما يداعب الذهن من أفكار وخيالات عميقة.

حدث لرجل أن ذهب إلى معرض سباق الخيل، وفي اليوم التالي رأى نفسه في المنام يركب مهرة جاره وراح يسابق بها، ثم رآها ترفصه وتولي عنه هاربة، هذا الحلم يجب ألا نأخذه بمضمونه الظاهر ففيه معان تستتر وراء هذه الرموز وتتكشف بالتحليل. وقد أزاح الستار أن هذا الرجل مغرم بزوجة جاره وأنه كان كثير الغزل فيها وكانت كثيرة النفور منه، وليست الرموز الظاهرة إلا تمنعًا يستر حقيقة ما يجيش بقلب هذا المريض من تمنيات وأوهام وأحزان، وحدث مرة أن رأت فتاة في منامها رجلا يركب طائرة وترتفع معه في السماء ثم رأت الطائرة تتمزق في الهواء وتحترق وتسقط بها، وقد أزاح التحليل أن هذه المرأة تزوجت ولكن حظها العاثر لم يكن معها موفقا.

وقد حدث أيضًا أن رأى رجلا نفسه مدعوا إلى حفلة لمقابلة الملك، ولكنه اكتشف في اللحظة الأخيرة أنه يسير حافي القدمين، وقد أزاح التحليل أن هذا الرجل كان قد تقدم لخطبة فتاة ولكن والدها اكتشف أنه غير أهل لها فرفض الخطبة فالأحلام رموز وطلاسم من ألوان الحياة ولكنها تعبر عن طريق غير مًباشر بما يجيش في نفسية الإنسان من أوهام وآلام وأحزان.

ونعود إلى موضوع التعلق فنقول أن هذا التعلق بالأم أو بالأخت أو بأحد أفراد العائلة، له تأثير قوى في حياة الانسان الجنسية وبالتالي في تكييف شخصيته؛ فالعصبيون الذين يصابون بمثل هذا التعلق ينشدون في حياتهم الزوجية نساء فيهم شبه كبير من أمهاتهم كما يختارون زوجاتهم ممن يمتون اليهم بصفة القربى، فالشديد التعلق بأمه قد يتزوج ابنة خاله أو يهيم بها حبا والشديد التعلق بعمته قد يتزوج ابنتها كبدل لما يريد والشاب الذي يتزوج زوجة عمه بعد وفاة عمه إنما يعاني تعلقاً شديداً بأمه وهو في اختياره زوجة عمه إنما يحاول أن يقرب التعلق بأمه فيجعله شبه واقعي لأن عمه بمثابة أبيه، وزوجة عمه بمثابة أمه.

وأمثال هؤلاء "العصبيين" إذا شجر خلاف بين زوجاتهم وأمهاتهم ينحازون دائما إلى جانب الأمهات، لأن الأمهات يملأن كل كيانهم الفكري، وأن فكرة زواج قدماء المصريين من أخواتهم مردها التعلق الشديد بالأخوات في الطفولة، وكما يهيم الإنسان بأمه تهيم الفتاة بأبيها أو بأي رجل فيه شبه من صورة أبيها، وتكون النتيجة السيئة هو الانهيار النفسي،

وإن كثيرا من الزيجات قد تحطمت على صخرة التعلق بالأم فإذا شجر خلاف بين زوج فتاة شديدة التعلق بأبيها وبين أمها انضمت الفتاة الى صف الأم عند الزوج، ولعل هذا يفسر لنا الكراهية البغيضة بين الزوج وحماته، ذلك لأن العقل الباطن يلعب دوره ويتدخل في المسألة ويجد فرصة الخلاف ما يجيز للفتاة من إشباع العاطفة المكبوتة نحو أبيها وأمها، وقد يتعلق الابن بأبيه بدل تعلقه بأمه، كما قد تتعلق الفتاة بأبيها، ولا شك أن خطر هذا التعلق المقلوب أشد قسوة من التعلق العادي.

وأنت إذا حاولت أن تفسر كل قصص الطلاق فيجب أن تعود إلى ماضي الزوجين لتعرف أن السبب الأصلي كامن في التعلق بالوالدين؛ فكأن التعلق بالوالدين نوع من الارتداد للطفولة ورغبة منه في أن يظل طفلا حتى يظل العبء الثقيل ملقى على والديه وأن من خداع النفس ما تلجأ إلية المرأة من الحديث عن آخر تميل إليه فتزعم أنه يغازلها وأنه يتتبع خطاها وهي بذلك تحاول عن طريقة غير مباشرة أن ترضي كبريائها.

ويلعب العقل الباطن أدوار أخرى كبيرة في تكييف شخصية الإنسان فمثلا الأم التي تحس ببرود جنسي نحو زوجها لأنها تكرهه، تود الانفصال منه ولكن قد يكون لها منه أولاد مما يجعل التخلص من زوجها صعباً فوجود الأولاد يكون بمثابة حائل دون الطلاق، ومن ثم يصبح هؤلاء الأولاد موضع سخط الأم لأنها ترى فيهم عقبة كؤود في سبيل تحررها من الرجل الذي تكرهه، ولكنها مضطرة بحكم الأمومة أن تحب أطفالها، فتراها

ترتد إلى المبالغة في إظهار العناية بهم والحب لهم لتغطى بذلك الكراهية المستترة وهى في كل هذه الأحوال تتصرف بطريقة لا شعورية.

كذلك الشأن في الشاب الضعيف الذي يعانى نقصا جسمانيا فيحاول أن يبدو في صورة أقوى من حقيقته، ومرد ذلك مركب النقص الذي يعانيه، وأن من رجال التاريخ العظام كانوا يعانون من عقدة مركب النقص؛ فقد كان يوليوس قيصر مصابا بالصرع، وكان غليوم مُصابًا بالشلل.

فكأن الضعف أو عامل مركب النقص من المسائل التي تثير العظمة في الرجال، ذلك لأن الحالة المرضية التي يعانيها المريض تخلق عنده قوة مضادة ليحاول أن يظهر أمام الملأ في مظهر أكبر من حقيقته ولقد قيل «أن كل ذي عاهة جبار» فجبروت الضعيف مستمد من حقده على العالم وشعوره بالنقص وإحساسه بأن الطبيعة حرمته من عدلها.

إن كل هذه العوامل وهذه الأسباب وغيرها من مسائل مجتمعة من شأنها أن تجعل المريض يحاول أن يصل بالقوة إل ما عجز عن الحصول عليه بالطبيعة، ومن هنا كانت القوة التي تنبت عن الضعف.

النزعات النفسية

يعتقد البعض أن الغريزة الجنسية ينظمها جهاز كالجهاز الهضمي أو الجهاز التنفسي وأن العقل يصيرها ويتحكم فيها كما يصير كل الغرائز الأخرى ويتحكم فيها، غير أن الواقع يقول لنا خلاف ذلك فهي التي تتحكم في العقل وهى التي ترضخ العقل لسلطانها وهى التي تملي عليه إرادتها فهي في الواقع الغريزة النفسية، وأنت إذا تدرجت مع نموها وجدتها تنبت مع الطفولة الرضيعة فالصغار يتلذذون وهم يرضعون أثداء أمهاتهم، يتلذذون بإحساس جنسي.

وفى تلك السن المبكرة تتركز العاطفة حول فم الطفل فهو يمتص لبن أمه ويشعر خلالها بنشوة عاطفية؛ فالطفل الذي يدأب على وضع أصبعه في فمه يحاول في ذلك إثارة اللذة الجنسية، وإذا كبر الطفل رويداً اتسعت منطقة الإحساس الجنسي وانتقلت من الفم إلى المنطقة المحيطة بالظهر والعجز، فهو في سن الثالثة أو الرابعة من عمره يكون قد انتقل بإحساس آخر إلى منطقة أخرى، وتبدو خطورة ذلك فيما تعتمد إليه الأم عندما تلقي بابنها الطفل على وجهه وتنهال ضربا على ظهره أو عجزه كأنها بذلك تعمل على تنشيط تلك المنطقة من الإحساس الجنسي، ناسية في ذلك ما قد يعرض الطفل في مستقبل حياته إلى الشذوذ الجنسي، لأن النشاط الجنسي إذا زاد عن حده في ذلك المكان – وفي ذلك الوقت من

السن – فقد يُؤدي إلى نكبات وخيمة في المستقبل كأن يصبح ذلك المكان الوحيد الذي يثير الناحية الجنسية مما قد يعرض المريض إلى الشذوذ الجنسي.

على أن من الأطفال في هذه السن الرابعة، أو الخامسة، أو السادسة من يظلون متعلقين بالماضي الذي كان يعيش وقت الرضاعة، أعني مُتعلقين بالإحساس العاطفي المُركز حول الفم، وهذا ما يُفسر لنا أيضًا امتداد العادة بالأطفال الذين يدأبون على وضع أصابعهم في أيديهم.

وبعد سن الرابعة تبتدئ العاطفة الجنسية تأخذ دورها في الطريق الطبيعي، ويشعر الإنسان حينذاك بإحساس جنسي عنيف، ولكن لسوء الحظ موجه نحو الأم. وفي تلك السن أيضًا الرابعة أو الخامسة تنتاب الطفل غيره شديدة نحو أبيه، فهو يرى أن أمه له وحده وأنه لا حق لإنسان آخر أن يُشاركه في هذا الحب.

ومن أجل الاحتفاظ بقوة ذلك الحب لأمه يغضب ويثور ويغار من أبيه، ومن هنا كانت الخطورة عندما يعجز الوالد الجاهل عن تفهم التيارات النفسية التي تجول بذهن الطفل الصغير فيتغاضى شعوره ويتقرب من زوجته أمام ابنه ظانًا بأن الابن صغير لا يدرك شيئًا مما يدور حواليه، وأن غيرة الابن التي تظهر أمامه إنما هي نوع من مزاح الأطفال.

ولا شك أن لذلك أثر كبير على شخصية الطفل، فهو يرى أمامه أمه الصورة المثالية التي وضعها في السماء يراها تنهار أمامه وتسقط بين براثن رجل آخر.

ولا شك أيضًا أن سقوط صورة الأم أمام ابنها مما يُؤدي إلى كارثة نفسية، فقد يمسي الطفل مفجوعًا حزينًا في آماله ناظرًا إلى العالم بمنظار أسود حزين غير واثق في نفسه مُتوقعًا الهزيمة في أعماله غير مُتفائل.

ولا شك أن هذه الأفكار المريضة التي تجول في ذهن الطفل يكون لها أثر كبير على حياته وشخصيته. ويقضي الطفل فترة من عمره يحدوه الحب العنيف نحو أمه، فهو يحزن لغيابها ويتألم لخروجها من الدار دون أن تأخذه معها، ومن أجل ذلك يقضي الساعات في بكاء مُستمر دون أن يستقر أو يهدأ نفسيًا حتى تعود من غيبتها البعيدة عنه.

وكما يعيش الطفل في خيال جنسي مع أمه تعيش الطفلة في خيال مع أبيها، فترى البيت مُتحزب شبه منقسم على نفسه، فالأطفال الذكور ينحازون نحو أُمهم في ميولهم ونزعاتهم وعواطفهم، بينما الفتيات الصغيرات يعشن في خيال آخر فينحزن نحو أبيهن، وقد تنقلب الحال فيها فيتعلق الطفل بأبيه وتتعلق الطفلة بأمها. وقد تتعقد الأمور فيتعلق الطفل بأمه ويتعلق بأبيه في الوقت نفسه، فهو يميل إلى كليهما في وقت واحد ويود من كلم نهما أن يبادلاه الحب وحده.

وهو يغار من والديه وتمتد جذور الغيرة المصحوبة بالأنانية إلى كل شيء يحيط به فيُحاول الاستحواذ على كل شيء، فإذا جلس إلى المائدة مع والديه راح يجمع كل الطعام أمامه، وإذا أحضر الوالد (رداء) إلى ابنه الآخر أو ابنته الأخرى انتابه شيء من الامتعاض الشديد المصحوب بخيبة الأمل؛ فهو يريد أولًا أن يكون هذا الرداء له ليشبع الأنانية، كما أنه ينظر إلى والده بشيء من العتاب لأن إحضار رداء إلى ابنه الآخر فيه معنى حب الوالد لابنه الآخر؛ مما يتعارض وطبعه الذي يكون الوالدين فيه حينذاك ملكًا له، وهكذا يعيش الطفل في خيوط مُعقدة مردها الميل الشديد إلى الأم والأب.

ويطلقون على هذا المريض الشديد التعلق بأمه أنه مُصاب بعقدة (أوديب) نسبة إلى الملك «أوديب» الذي تزوج أمه في القصة الخرافية من الأدب الإغريقي القديم، وهذا التعلق عادي في حياة الأطفال، ولكن خطورته أن يمتد بالمريض إلى سن مُتأخرة فيصل به السن إلى العشرين أو الثلاثين أو حتى إلى الأربعين أو الخمسين.. والمريض بعقدة أوديب الذي بلغ سن الرجال دون أن يتخلص من عقدته تكون شخصيته مشوبة بالطيف الذي يُمازج خياله، فيبلغ من السن حدا، ولكن تصرفاته فيها كثير من تصرفات الأطفال.

ولعل رغبة الكثيرين في أن يتزوجوا نساء تكبرهم في السن إنما مرده عُقدة أوديب، فهو يبحث عن تسوية نفسية فيختار امرأة كبيرة ليشعر بأنه طفل أمامها، وبذلك يوهم نفسه أنه مازال يعيش في أحداث الطفولة، وأن

الرجل الكثير النزاع مع أمه رجل مريض بعقدة أوديب؛ فقد كبرت به السن دون أن يتمكن من الحصول على أمه فراح يغطي ذلك بالنفور منها، وما هذا النفور إلا مظهر شديد من مظاهر الحب لها؛ لأنك إذا أحببت امرأة وعجزت عن الحصول عليها انقلب ذلك الحب الشديد إلى بغض أشد.

ونعود إلى قصة التدرج بالطفل فنجد أنه في الرابعة شديد التعلق بأمه، ويستمر هذا التعلق سنين فيتلاشى بالتدريج حتى يصل إلى السابعة أو الثامنة أو العاشرة، فاذا بلغ قمة النضج الجنسي الكامل في الثالثة عشر أو الخامسة عشر بات خاليًا من هذه العقدة تمامًا، وراح يتطلع إلى النساء الأخريات كوضع طبيعي لتطور البشر في سبيل التناسل.

وثمة مسألة أُخرى يجب أن نعرج عليها وهي – العادة السرية – إنها طبيعة في طفولة الإنسان منذ الرضاعة، فبينما يرشف الابن لبن أمه في سكون وسعادة تراه يعبث بجهازه التناسلي، ويستمر به الميل للعادة السرية وهو يتدرج خلال السنين الطوال يصعد سلم الحياة حتى يصل سن البلوغ فتبلغ به العادة ذروتها ثم تأخذ دورها في الهبوط تدريجيا حتى تتلاشى تماما وتختفي في الزواج، على أن خطورة العادة السرية تتركز في صعوبة التخلص منها؛ فالمريض الذي يُمارسها قد يأخذه التيار العنيف حتى يمسي أسيرها فيصعب عليه التخلص منها حتى ولو بعد الزواج.

وأذكر قصة امرأه حزينة في الثلاثين من عمرها متزوجة ولها ثلاثة أطفال، تعيش في برود جنسي، وقد ذكرت لي قصة حياتها فقالت:

إنها كانت تُزاول العادة السرية بكثره شديدة، فلما تزوجت ظنت أن الزواج سيشفيها من عادتها، ولكنها لم تتمكن من التخلص من مرضها فكانت تنتظر حتى ينام زوجها وتمارسها، ثم حدث أن وقع في يدها صدفة كتابا عن مضار العادة السرية فامتنعت عنها ولكنها كانت تقضي الليل كله في تفكير عميق وتردد شديد فقد وقعت صريعة الانهيار العصبي نتيجة للصراع النفسي الشديد بين أن تأتي هذه العادة أو تتجنبها. وباتت حياتها مع زوجها سلسلة مُتواصلة من الخلاف الشديد المُستمر، وقد حدث مرة أن تغلب العامل القوي في نفسها الذي كان يدفعها نحو إتيان تلك العادة، حينذاك أحست بانفعال شديد كاد يدفعها إلى الانتحار.

وأذكر قصة شاب في الثالثة والعشرين من عمره جندي بالجيش جاءني وهو خائر الأعصاب نصف فاقد الذاكرة ونصف مشلول في ساقيه، وقد قضى في مستشفى الجيش ستة أشهر دون أن تتقدم حالته بل بالعكس كانت تزداد سوءًا، وبالبحث في سريرة هذا الشاب، تمكنت أن أعرف أنه كان يمارس العادة السرية بمعدل عشرين مرة في اليوم، على أن فقدان الذاكرة والشلل لم يكونا نتيجة لمزاولته هذه العادة المريضة، فقد كان يمازج هذا الشاب خوف شديد من الجندية وكان يخشى أن تدفع به القيادة العسكرية إلى الخطوط الأمامية فدأب على العادة السرية يمارسها بكثرة حتى تعتل صحته ويكون في ذلك عذر وسبب قوي لأن ينجو بنفسه، ولكن العادة لم تكن سبب مرضه، وانما السبب هو الإيحاء القوي الذي سلطه على نفسه ليمرض فمرض، فالشلل الذي به شلل هستيري، وفقدان الذاكرة فقدان هستيري سرعان ما يزولا إذا زالت الأسباب، وكان

في بقائه في المستشفى العسكري ما يؤكد له من أنه سرعان ما يعود إلى الميدان بمجرد شفائه مما زاد في مخاوفه وزاد به الانهيار النفسي وبات بعيداً عن الشفاء، أما العادة السرية فلم يكن لها الأثر الأكبر على مرضه، ولكن كانت عاملا من العوامل التي ساعدت على ضعفه العام مما ساعد على الانهيار.

وخطورة العادة تتركز في الصراع النفسي الذي يسبق مزاولتها والندم الذي يحل بالمريض عقب مزاولتها، وخطورتها أيضًا فيما يلجأ إليه الآباء بصراحة وتحدي في مُواجهة أبنائهم بضرورة الإقلاع عنها.. عندئذ ينتاب المريض شبه نكسة نفسية وهدم الثقة بنفسه والخوف على أسراره من أن تتفشى فيعتقد أن الوالد الذي تمكن من معرفة سر ابنه الذي يزاول عادته في كتمان شديد، لا شك أن هذا الولد يعرف أشياءً أخرى عن ابنه، وفي ذلك تعريض بكرامته وتمزيق شديد لشخصيته.

ولا شك أن كثيرا من الفواجع النفسية يكون مردها مواجهة الوالدين بأخطاء الأبناء دون تمهيد أو استعداد؛ فالصورة المثالية التي يحاول أن يصورها الابن لنفسه أمام والديه صورة براقة فيها كثير من المثل، ومن أجل ذلك يتحاشى الابن أن يظهر أمام والديه بما يمسخ هذه الصورة فكأنهما بذلك حطما آخر خط من خطوط الدفاع النفسية.

فالوالد الذي يرى ابنه يدخن ويواجهه وهو يزاول فعلته النكراء والد جاهل لأنه مزق النقاب الذي كان يحجز وراءه الاحترام والكبرياء، وبات

الابن في حل من التقاليد ومن الأخلاق والمثل ومبادئ العفة والكرامة، وكما أن الطفل تواق للمحافظة على كرامة نفسه فهو أيضا تواق للمحافظة على كرامة والديه؛ فالطفل الذي يواجه أمه في موقف غرامي مع شخص آخر غير أبيه ستتحطم في ذهنه فكرة المثاليات ويعيش في دنيا بلا أخلاق أو مثاليات.

وهناك من الأمراض النفسية ما ينبت في قلب المريض مع مولد الطفولة كمرض (السادزم) أعني مرض حب القسوة والشدة وحب إيذاء الآخرين ومرض (الماسوشيزم) أي مرض الخنوع والذلة والميل إلى النواحي الواطئة، ومرد هذا كله إلى الوالدين؛ فالابن الذي يعيش في جو عاصف مع والد قاس وأم ضعيفة يشرب من البذرة التي يعيش فيها ويحاول في مستقبل حياته أن يمثل الدور العنيف الذي يلجأ إليه أبيه أو يلجأ إلى دور أعنف منه، ليجيد تمثيل الرواية.

وإني أعرف شابًا كان ميالا إلى نبش القبور والاجتماع بالموتى، فكان ينتظر في المدينة حتى يقطف الموت امرأة ويحملها الناس إلى القبر، فسرعان ما يهرع إليها وينبش المقبرة ويظل يتردد عليها أياما حتى تتعفن وتبلى.. وبالبحث عن سريرة هذا المريض وجدنا أن طفولته منحلة فقد كان والده سكيرا عربيدا فظا غليظ القلب وكان ينهال على زوجته ضربا بالسياط دون سابق انذار أو دون شفقة أو رحمة، وكانت أمه امرأة من نساء الليل لا تتورع أن تأتي بأصدقائها الرجال إلى بيت الزوجية وعلى مرأى من ابنها؛ فكانت النتيجة أن نبت الطفل وقد تهدمت فكرة المثالية من ذهنه

وضاعت من ناظريه كرامة أبيه وكرامة أمه ورسخت في ذهنه القسوة كوسيلة فعالة وعملية للوصول والغاية، ومن ثم ضاعت المثل الإنسانية من ناظريه وبات ينظر إلى هؤلاء البشر كأنهم ذئاب تجري وراء المادة، وتفاعلت كل تلك النزعات في نفسه وبات إنسان أشبه بالذئب يلتهم الجيفة والميتة.. ومع أن نباش القبور فئة قليلة جدا في العالم إلا أنهم يحملون معنى الهروب من المدنية والعودة إلى البدائية الأولى، أعني أنهم حطموا صور التراث القديم لوالديهم وداسوا على كرامة المجتمع وباتوا مع الخفافيش.

وهُناك الأمراض النفسية الأُخرى التي تتحكم في العقل، وبالتالي تتحكم في تصرفات الإنسان وأعماله.

التصرفات العصبية أو الرغبات اللا إرادية

جذورها البعيدة التي تمتد الى قاع النفس

إن القصص التي سوف أضعها أمام القارئ من صميم الحياة، وهي مرآة للنفسيات المختلفة من البشر، ويمكن للقارئ أن يرى فيها كيف ترسخ الرغبات الكامنة في قاع النفس وتأخذ مظهرا يخالف حقيقتها، وكيف أن الحب للشيء يأخذ مظهر الامتعاض منه وكيف تأخذ الكراهية مظهر الحب؟!.

ففي كثير من الأحايين تتلوى المسائل على الإنسان ويعجز عن تفهم الهدف الذي ترمي إليه الأغراض النفسية الكامنة في القاع؛ فأنت إذا أردت شيئا وعجزت عن الحصول عليه لأمر ما انتابك قلق وتردد وحيرة واضطراب، فتوتر عصبي شديد، فانهيار نفسي، وفي ذلك الانهيار النفسي تصبح أعمى وأصم غير مدرك للحقائق التي أمامك وغير قادر على معرفة قيم الأشياء

والآن أضع أمام القارئ قصة من أغرب قصص الانحراف النفسي التي مرت أمامي، وهى لرجل في الخمسين من عمره جاء لزيارتي وبمجرد أن رآني ابتدرني قائلا «إنني رجل شقي لأني أعرف أن حياتي معرضة لعدوى

السل؛ فلي صديقة، وصديقتي هذه مصابة بالسل وسينتقل المرض منها إلى شخصي».

فسألته عما لو أن صديقته مصابة بهذا الداء فعلا؛ فرد قائلاً

«فعلا أو أنها على الأقل في سبيل الإصابة به».

ثم راح يقص على قصة غريبة فقال: أنه وصله يوما ما خطاب من صديقته، والغريب في قصة هذا الخطاب أنه لما ذهب إلى مكتبه كان متأخرا عن عادته ووجد صديقه الذي يُزامله بالمكتب قد سبقه إليه، ووجد الخطاب على مكتبه وكان على الغلاف الخلفي للخطاب إشارة لحرفين (م. ن) وهما إشارة لاسم الصديقة، ثم استطرد قائلا:

ولا شك أن صديقي قد قرأ غلاف الخطاب المرسل لي وعرف منه عنوان الفتاة، وأعتقد أنه راح يضع الخطة لزيارتها ومما أخشى له أن يكون قد تمكن من الاتصال بها

فسألته فيم لو أن صديقه مصاب بالسل؟!.. فأجاب بالنفي. ولما سألته عما يخفيه إذن من مسألة العدوى، قال: أن له جارًا مُصابًا بالسل منذ بضع سنوات، ومع أن هذا الجار قد شُفِي إلا أن آثار المرض ما زالت باقية عنده.

فسألته مُستغربًا عن مخاوفه التي تتعقد مع بعضها والتي تجيز نقل داء السل إليه من مجرد قراءة عنوان؛ فلم يحر جوابًا، ثم سألته عن اسم صديقته؛ فقال «اسمها مينا».

وكان غرضي من سؤالي عن اسم صديقته لأن تجاربي علمتني دائمًا بأن أمثال هؤلاء المصابين يحبون في صديقاتهم أن يكون الاسم فيه صلة بإحدى قريباتهم؛ وعندئذ تقدمت نحوه خطوة في تفكيري فسألته: أو هل اسم «مينا» ينطبق على أمك أو أختك؟. فأجاب

– إنه اسم زوجة أبي.

– هل هي تُعاني مرض السل؟!

– لا، ولكن أُمي توفيت بمرض السل.

أظن الأمور قد وضحت الآن، فنحن أمام شاب شديد التعلق بعائلته شديد التمسك بأهداب التاريخ الذي عاشت فيه أمه؛ فتبادلنا الكلام وتدرجنا في الحديث لنزيح الستار عن صديقته هذه، فطلبت منه أن يتحدث لي عنها، فقال:

– إنها امرأة سيئة الخلق وأني أبغضها وأمقتها.

ثم استطرد في حديثه وقال:

– ولكم تمنيت أن تموت! ولكم سامرني التفكير الشديد في أن أخنقها وأتخلص منها، فأنا أكرهها كرهًا شديدًا ولكني أقف مذهولًا من

أمري، فكم هو غريب إلى نفسي أن أكره هذه المرأة، وكم هو غريب أيضًا أن أشتهيها عندما أكرهها.

ولما تحدث عن أمه تمكنت أن أدرك العطف النبيل الذي كانت تصبغه الأم عليه، فقد عاشت من أجله وكرست حياتها له، وكان هو من جانبه يكبر تلك الصفات النبيلة التي كانت تتسم بها أمه، فكان يُجاوب عواطفها بالرقة والعطف والحنان.

أما زوجة أبيه فكانت على النقيض امرأة شريرة سيئة الخلق لا ضمير لها أو إحساس أو عطف، ومن ثم كان حُبه لزوجة أبيه في صورة من الكراهية، فقد كان يتضارب مع حب الأم، فكأن الكراهية هي الحب في صورة مقلوبة الوضع.

أما صديقته فكانت لديه بمثابة بديل يعوضه حبه لأمه وكراهيته لزوجة أبيه. كانت بمثابة الصورة التي يرى فيها الحب والبُغض مُجتمعين، فهي تحمل اسم زوجة أبيه، أعني أنها تحمل الشبه الذي يقترب بها من زوجة أبيه.

أما وجه الشبه الذي يربط هذه الفتاة بأمه فقد ظل بعيدًا، ومن ثم راح يُفكر في طريقة أو وسيلة يُحاول أن يبحث فيها عن شبه، وكان التفكير لا شعوريا فتمنى أن تمرض بالسل حتى يصبح فيها شبه كبير من أمه. ومن ثم راح ذهنه عن طريق غير مُباشر يلعب دوره في قصة الخوف من الإصابة بالسل، وقد تعود هذا الرجل زيارة هذه الفتاة ومُساعدتها ماديًا، فكان من

حين لآخر يمنحها بعض النقود الذهبية، وكان يُفضل أن ينقدها الذهب عن أي شيء آخر، والغريب أن اسم أُمه كان (ذهب).

إن الفكرة التي كانت تُسامره بأن يتمنى أن تكون صديقته هذه مريضة بالسل، هذه الفكرة فيها معان مُختلفة، ففي مرض الصديقة بالسل فرصة تتيح له التخلص منها، ومن أجل ذلك راح يتمنى لها الموت، فقد خاطره خاطر الزواج منها، ولكنه كان يطرد ذلك الخاطر لأنه في قرارة نفسه لا يريدها، أما إذا أُصيبت بالسل فإن وفاتها تصبح على الأبواب، وحتى إذا لم تمت فالسل عُذر قوي يُبرر عدم زواجه منها، وحتى لو جاز وتزوجها فالسل أيضًا يقف عاملًا قويًا يحول دون الحمل والولادة، وبذلك يتحاشى النسل منها.

أما المعنى الآخر الذي يجيش بصدره فخاص بزوجة أبيه، فقد راحت المرأة تُطارده في بيت أبيه وتُلاحقه بفظاظة قلبها فكرهها وبغضها، على أن هذه الكراهية وهذا البُغض يحملان معنى عكس معنى الحب الخفي، فقد تمنى الرحل لو أن زوجة أبيه كانت في رقة أمه كي تندثر الكراهية المُستعرة بينه وبينها ليقوم على أنقاضها حنان وعطف، فلما عجز عن الحصول على عطف زوجة أبيه وجه نظره صوب تلك الفتاة «مينا» مُستعيضًا عنها بها، زاعمًا أنهما يحملان اسمًا واحدًا، فكان حُبه للفتاة هو في الواقع حبه للاسم (مينا) وهو اسم زوجة أبيه أيضًا.

وأنتقل إلى قصة فتاة في الـ ٢٣ من عمرها أجبرتها أمها أن تتزوج رجلًا لا تحبه، وكان الزواج نغمة حزينة في قصة غير مُوفقة، فقد كان الزوج رجلًا عصبي المزاج ضعيف الهمة كسولًا يحب البطالة.

أما الفتاة فقد كانت مُنذ نعومة أظافرها مُرهفة العاطفة رقيقة الشعور، وكان ينتابها وهي آنسة قبل الزواج مرض عصبي يشبه الصرع، فكانت إذا اضطرت لأن تعبر أحد الشوارع العامة أو الميادين أو مُفترق الطرق أحست كأنه سيغمى عليها وتسقط فاقدة الوعي.

وبعد الزواج أنجبت طفلًا، ثم مرت سنة أخرى وأنجبت طفلًا آخر، وبعد ولادته ببضعة أشهر أصيب بمرض مُفاجئ عنيف لم يمهله طويلًا فاختطفه الموت بغتة من بين يديها.

وكان لعنصر المفاجأة والأحداث السريعة التي مرت أمامها من حمل وولادة وحضانة وموت مُفاجئ، كان له أكبر الأثر على نفسيتها فانتابتها حالة تشبه الذهول، فجفت الدموع في عينيها.

وأدهشها أن ترى الكثيرات من أقاربها وصويحباتها يبكين الطفل المسجى على فراشه بينما هي كانت تتحرق على نقطة من الدمع، كما أُصيبت بلطشة نفسية أخرى، فكان ينتابها سرحان الفكر وشرود العقل، وكانت تجلس ساهمة، وإذا نظرت إلى شيء أمامها ظلت جامدة مُدة طويلة فلا تقلع نظرها عنه إلا بمجهود كبير.

كما أصبحت بعد ذلك امرأة باردة في عواطفها فكانت ترى نداء الطبيعة فكرة بغيضة إليها، فابتعدت عن زوجها وأنفت منه، ثم تطورت بها المسألة العصبية فانتابها إحساس غريب فراحت تعتقد بأنها على أبواب الموت، وتملكها هذا الشعور القوي الذي كان يُؤكد لها أن الموت قريب جدًا منها، فكانت إذا تحدثت إلى أي إنسان قالت له: «إني سأموت... إني سأموت» ثم ازدادت حالتها سوءًا فراحت تشك في كل شيء تُقابله وتشك في حقيقة الوجود؛ فكانت إذا أمسكت بيدها قلمًا مثلًا راحت تتحسسه جيدًا لتتأكد أن الذي في يدها هو قلم، وكانت إذا جلست على مقعد راحت تتحسس المقعد لتتأكد بأنها تمسك بيدها مقعد وأنها تجلس على مقعد، وكانت إذا نظرت أمها راحت تسائل نفسها «هل هذه هي أمي؟!» فكأنها كانت تشك في حقائق الأشياء التي كانت تلمسها أو تراها.

«ورأت مرة منامًا أفزع حياتها وهدم كيانها النفسي؛ فقد رأت زوجها يقتل آخر»، وكان في ذلك المنام ما زاد من اضطراب أعصابها، فقد ظلت صورته ماثلة أمامها فترة طويلة دون أن تتمكن من أن تطرد المنظر المريع من أمام عينيها.

وازدادت حالتها اضطرابًا فراحت تتساءل عن الأشياء التي أمامها، فكانت تسأل «ما هو اللون الأحمر؟!.. ما هي المعدة؟!.. وما هي الرئة؟!.. إن هذه كلمات لا وجود لها ولا حقيقة لأصلها، إنها مُرادفات إلى جوار بعضها لا تحمل معنى».

ثم ازدادت حالتها سوءًا فقد انتابها شعور من الخوف بأنه قد تأتيها لطشة من الجنون فتقتل ابنها الوحيد، ولكي تطمئن نفسها جمعت كل السكاكين التي في الدار ووضعتها في حقيبة ووضعت الحقيبة في دولاب وأغلقت الدولاب بمفتاح وألقت بالمفتاح في مكان بعيد الحصول عن يدها «وكانت إذا أمسكت ابنها واحتضنته خُيِلَ إليها أنها ترى أمعاءه الداخلية».

وبعد كل هذا الاضطراب العصبي راحت تحلم بخيالات وأحلام اليقظة فكانت تحس كأن الغمة ستنقشع عن قريب وأن الله سيرسل من عنده رسولًا إليهما يُباركها ويُخلصها من الهوس الذي تعيش فيه وكانت تظن بأنه سيأتي هذا اليوم وفعلًا تخيلت نفسها جالسة في حديقة دارها وأن شبحًا كبيرًا له ذقن طويلة وعليه مهابة يتقدم إليها في تؤدة ليقول لها بأنه الله وأنه أتى من سمائه بنفسه ليُباركها فلن تُؤذي أحدًا بعد اليوم.

أنا نتساءل عن الطبيب الذي يُمكن له أن يُعالج هذه المرأة؟!.. وإلى أي مدى يمكن أن يفسر حقيقة نفسها وحقيقة هذه الخيالات التي تتماوج أمام ذهنها أن أكفأ طبيب لن يتمكن من علاج هذه المرأة ولن يتمكن من أن يساعدها في سبيل الحصول على الشفاء، أما تفسير القصة فواضح، فقد زفت إلى رجل لا تحبه أما الرجل الحقيقي الذي كانت تحبه فهو شقيق زوجها، فقد عاشت تتمنى لو أنه كان زوجها ولكن وجود زوجها هي ووجود ابنان لها، كانت كل هذه المسائل بمثابة عقبات تقف أمامها في سبيل الوصول إلى الرجل الذي تود الحصول عليه، ومن ثم تمنت لو أن

يموت زوجها ويلحق به أبناؤها وكان لها (سلفة) فتمنت موتها أيضا حتى يخلو الطريق أمامها من العقبات التي تحول دون الوصول إلى الرجل الذي تحبه.. والآن وأمام هذه الرغبات المريرة راح شعورها الكامن يطفح بالشرور وينطق بالإثم؛ فلم يكن أمامها غير الشرور وسيلة تمهد بها طريق السعادة، وكان في ذلك ما أثارها وأثار ضميرها وجعلها تنظر الى نفسها امرأة مجرمة فكرهت نفسها ثم تمنت لها الموت وكان هذا هو السبب الذي جعلها تتخيل الموت قريبا منها وجعلها تضطرب في حياتها وجعلها تقول «إني سأموت»

وفى هذا الوقت الذي كانت تضطرب فيه نفسيتها تصادفه أن مرض طفلها ثم مات وكانت دهشة الفتاة من جفاف دموعها عندما وجدت نفسها جامدة لا تبكي الميت كما يفعل كل الناس، على أن جفاف الدموع كان كرد فعل لحالة الرضاء عن الوفاة ومباركة الموت، وبذلك تحقق أول أمل من الآمال التي كانت تجيش في صدرها عندما أزاحت عقبة من العقبات التي كانت في طريقها

ولكن حنان الأمومة على فقدان الابن راح يتضارب مع رغباتها التي تمنت موت الطفل وباركت وفاته، ومن ثم راحت تؤاخذ نفسها على الشر الذي تمنته للطفل والذي استجابت له السماء ثم راحت تحس بنوع من السعادة من أن السماء لم تستجب لبقية ما تريد فتقضي على بقية الذين تود لهم الموت؛ فكانت تتحسس الناس لتتأكد من وجودهم، وهذا هو

السبب الذي كان يدعوها لأن تتلمس الأشياء بينما لتتأكد من وجودها عندما كانت تقول «هل هذه هي أمي؟!»

وهي في قرارة نفسها تمنت الموت لابنها الآخر لأنه كان عقبة من ضمن العقبات التي ودت زوالها، ولكنها خشت أيضا أن تتحقق تلك الأمنية كما تحققت الأمنية الأولى بوفاة ابنها الآخر، ومن هنا خامرها شعور قتل ابنها للتخلص منه، ثم ضاقت من نفسها على ابنها وخشت أن تقتله فجمعت السكاكين ووضعتها في مكان بعيد عن متناول يدها

وكان يخيل لها أنها ترى أمعاء ابنها الداخلية وهي تحتضنه، هذه التخيلات هي نتيجة ما تتجاوب له نفسها من شرور ورغبات عندما يمزق السكين بطن الطفل، وهي تظن أنها ترى الله وأنها تتحدث له.. هذه الظنون بمثابة رجوع في أمنياتها لابنها فكأنها تريد أن تقول لله ألا يأخذ ابنها الثاني كما أخذ ابنها الأول، وأنها ليست جادة في أمنياتها

وكانت تتمنى موت زوجها ولكنها في الوقت نفسه آخذت نفسها على هذا التمني الشرير فكأنما كانت تريد لزوجها الموت، وفى الوقت نفسه تريد له البقاء، ومن هنا رأت زوجها في المنام وهو يصارع رجلا آخر ويقتله.. وتفسير ذلك أنها رأت زوجها يصارع تمنياتها الشريرة، ولكن بقاء زوجها حيا ظل يؤرقها لأنه حجرة عثرة تقف أمام تمنيتها، أعني أن في حياته ما يحول دون زواجها من شقيق زوجها الرجل الذي تحبه

ويعتقد البعض أن الارتباط بين النزعات النفسية الكامنة ميسور الحل وأن العقد الملتوية في نفس هذه المريضة من المسائل التي يمكن التعرف عليها، وبالتالي يمكن حلها فكثير من العلماء النفسانيين تعوزه المهارة القوية والخبرة العميقة والمقدرة الفنية فيقف عاجزاً غير قادر على تفهم التيارات التي تلعب دورها في تكييف نفسية هذه المرأة. وبدلا من أن يكون عاملا لتخفيف الآلام عنها قد يكون من العوامل التي تزيد همومها بما يعمد إليه من تكليفها لكثير، بينما هو عاجز عن تفهم الحقيقة وعاجز عن أداء أي خدمه لها.

وإن قصصاً عديدة أخرى من هذا النوع تحدثنا عن الغموض الذي يكتنف النفس البشرية فقد زارني أحد المرضى وهو شاب في دور المراهقة وحدثني عما يعانيه من آلام، فقد كان يعاني التأتأة كما كان يعاني الكثير من الأمراض الجسمية الأخرى بينما إذا وضع سبابته على أنفه تذهب عنه التأتأة ويصبح في إمكانه أن يتحدث بطلاقة وتزول عقدة لسانه.

هذا الشاب كان كثير التعود على العادة السرية، كثير الممارسة لها، وكان يخشى أن يضبطه بعض الناس وهو يزاول عادته المريضة، وكان والده يعرف عنه ذلك الداء فطلب منه إذا ذهب للنوم أن يضع يديه الاثنتين فوق غطاء السرير

والتفسير لهذه المغالطة النفسية سهل وبسيط، وإني أسألك عما يمكن لك أنت أن تستشفه من وراء هذه الطلاسم التي تمكنه من الكلام بطلاقة إذا وضع إصبعه على أنفه؟!

إنه يريد أن يشهد العالم بأنه لا يحاول العادة السرية وأن يديه جوار أنفه بعيدتان عن موضع الجريمة، ومن طبع هذا الغلام الكذب، فقد حدثني مرة عن قصة طويلة فهمت في لحظتها أنها قصة من نسج الخيال فسألته عن الداعي له بأن يكذب علي بمثل هذه الأسطورة؟ فقال لي: إنه لا يعرف المعنى أو الداعي إلى أن يلجأ إلى الكذب، اللهم إلا أن هذا الخيال القصصي جاء له مرة واحدة، فأراد بدورة أن يتحدث به معي في صورة قصة ضعيفة.

وقد حدث مرة أن مرض أحد المدرسين مما استدعى إدارة المدرسة بأن تصرف التلاميذ لعدم وجود مدرسهم، فلما ذهب إلى منزله وسأله أبوه عن سر حضوره على غير عادته فبدلا من أن يقول له الصدق زعم بأن سقف المدرسة قد سقط مما اضطر إدارة المدرسة بأن تصرف الطلبة، ولما استجوبه والده عن بقيه قصته الخرافية دخل إلى كذبة أخرى ثم راح يتدرج بالحديث حتى ذهب إلى قصة أخرى خيالية وظل كذلك حتى عجز عن الاسترسال في الكلام فراح يثأثيء بالكلام، فسألته عما لو أنه يشعر بسعادة من جراء ذلك الكذب؛ فقال: نعم؛ فسألته «إذا أنت سعيد من مرض أستاذك بدلا من ان تشعر بعطف عليه شأن أي تلميذ لطيف العشرة»؛ فقال «فعلا» إني أشعر بلذة عندما يمرض أستاذي ولكني لا أريد

أن أذكر كلمة «المرض» لأني أخشى أن يتمكن والدي من أن يستشف دخيلة نفسي وشعوري.

وقد أزاح التحليل النفسي عما يخامره من شعور نحو أبيه فهو يتمنى أن يصاب والده بداء يقعده عن القيام، وكان هذا الشعور الذي يخامره هو السبب الذي كان يدعوه للكذب فاختلق قصة طويلة حتى يبتعد عن الكلمات التي ترتج منها نفسه ويكون فيها ما قد يفضح سره، على أن هناك سبباً آخر يثير قلبه للكذب، فقد كان يحاول عن طريق خفي أن يرى مدى علم والده عن ميله للعادة السرية فكأنه كان يحاول اختبار والده عن مدى مقدرته (الوالد) في معرفة الأسرار واكتشاف الحقيقة فكأنه إذا نجح في أكاذيبه هذه دون أن يكشف منها والده شيئا فإن في مقدرته أن يحاول العادة السرية في الظلام دون أن يتمكن أحد من معرفة سره.

قبل أن يأتيني هذا الغلام ذهب إلى أخصائي آخر غيري، ولقد حاول معه ذلك الأخصائي أن يعالج ثأثأة لسانه بالقراءة السريعة في الكتب المختلفة وبعد القراءة مرة أو مرتين طلب منه ذلك الأخصائي أن يغلق الكتاب ثم أمره بأن يجلس صامتا فلما فعل ما أمر به الأخصائي واجهه قائلا: (أنت تمارس العادة السرية).

لا شك أن هذه أعنف صدمة يمكن لطبيب أن يوجهها لمريضه؛ فقد انتاب الغلام خوفا شديدا من أن يكون سره معروف للعالم كله، ومما زاد الطين بلة أن ذلك الأخصائي بدلا من أن يثير مخاوفه راح يضاعف له

الرعب في قلبه، فقال له: «إن أي انسان يمكن له أن يستنبط بسرعة من النظر الى التجاويف العميقة التي تحيط بعينيه، يمكن له أن يستنبط أنه يمارس العادة السرية».

ومن ثم انتاب الطفل إحساس شديد بأن العالم كله ينظر اليه ويعرف سره، فكان لا يتحدث إلا إذا وضع إصبعه على أنفه، كأنه بذلك يريد أن يستشهد العالم بأنه برئ مما يزعمونه نحوه..

وإني لأتساءل عن السبب الذي كذب عليّ في قصته الخيالية بأسلوبه الخرافي الذي يزعمه مع الناس جميعًا إنه أراد بذلك أن يختبر مدى مقدرتي في إمكاني التعرف على الحقائق، وإني أظن أنه عمد إلى هذا الأسلوب عندما واجهته بأشياء كثيرة عن نفسي لم يسبق أن سمعها من أحد غيري، فكأنه أراد بذلك أن يعرف مدى قوتي في اكتشاف الكذب، وهذا الكذب جاء بدون تفكير نتيجة للكبت، وهذا كذب غير إرادي أو هو تصرف فوق طاقته.

وأنتقل إلى قصة أُخرى من قصص الغموض النفسي، وهي عن رجل يمتهن التجارة، يقضي طيلة يومه في تفكير مُتواصل عن مكان حانوته فتُخالجه رغبة قوية لبيع محله القديم ويشتري بدلًا عنه آخر في وسط المدينة، مع العلم بأن حانوته القديم رائج البضاعة ويدر عليه دخلًا كبيرًا، ومع ذلك فهو غير سعيد بمكانه الراهن، وانتهى به التفكير إلى أن ينفذ

الفكرة التي في ذهنه وافتتح حانوتا في المكان الذي يريده، ومع ذلك راح يُؤاخذ نفسه على العجلة.

هذا التصرف يُسيطر عليه تفكير عاطفي، ففي ذهن هذا الرجل رسخت فتاة كانت تعمل في إحدى الحوانيت الحديثة، وكانت صغيرة جذابة وجميلة، وكانت زوجته امرأة مُسنة فكان في استبدال الحانوت القديم بالحانوت الجديد نغمة رمزية بما يجيش في صدره من رغبة يتمنى فيها أن يستبدل فيها زوجته المُسنة بتلك الفتاة الصغيرة الجميلة. فلما استبدل الحوانيت ببعضها، راح يُؤاخذ نفسه عن رعونة تصرفه، فإن حانوته القديم أو بمعنى آخر زوجته القديمة أغلى ثمنًا وأعرق قيمة من ذلك الطلاء الخلاب الذي يُغطي ضعفًا ونقصًا.

لقد اقترف الرجل جريمة في حق الماضي وحق الخدمات الطويلة التي بدلًا من أن يُجازيها بالشكر والثناء كان معها قاسيًا جبارًا.

وهذه قصة رجل في الثانية والسبعين من عمره يعيش في رعب، فهو يخشى أن يغتاله بعض المُجرمين، ومن ثم يعيش في جُبن ليتحاشى كل ما من شأنه أن يثير الناس ويُؤدي إلى الاحتكاك بهم، وبالرغم من السمعة الطيبة التي يتمتع بها بين جيرانه، وبالرغم من الحيطة الشديدة التي يعمد إليها من المزاليج الكبيرة التي يقيمها وراء بابه ما زال القلق العصبي يأخذ بتلابيبه مما هد مضجعه وأبعد عنه النوم والراحة، وهو دائب البحث عن الوسائل التي تخلق له الخوف وتخلق له التعب، ومع أن هذه الوسائل خيالية من بنات

تفكيره، لا أصل لها إلا أنه مُتمسك بها ليُحقق الهدف الذي يرمي إليه وهو وجود سبب للخوف، فمثلًا يظن أنه مشى أمام زيد من الناس دون أن يقرئه السلام وأن زيدًا طواها في نفسه، وهو إذ سار في طريق عام وحدث أن واجهته فتاة في طريقها قادمة من بعد ترك لها جانب الشارع كله ليعرج إلى الجانب الآخر لأنه يخشى أن يحتك بها مُصادفة أو يلمس جانبًا منها فتزعم عليه بعض الشيء بالباطل مما قد يعرضه للمسئولية والمؤاخذة.. ولقد قرأ مرة في إحدى الصحف عن إحدى المُحاكمات القضائية الخاصة ببعض المسائل الجنسية الشاذة فانتابه قلق شديد واضطراب عنيف، فقد راح يسائل نفسه وهو الكثير الخلطة بالناس، ما يكون موقفه لو أن شابًا شريرًا ادعى عليه شيئًا بالباطل؟!

ولقد حدث مرة أن كان يزور إحدى السيدات اللائي يعرفهن وتصادف أن تركته السيدة في الصالون وحده وغادرت الحجرة لبعض شئون البيت، وفي تلك اللحظة قدمت الخادمة تحمل له التحية فنجانًا من القهوة؛ فلم يلبث أن انتابه قلق شديد فقد خشي أن تدعي عليه الخادمة شيئًا مما قد يسيء إلى سمعته فلم ير بُدًا غير ترك المكان على جناح السرعة، وهكذا راح الخوف الهستيري يلعب دورًا كبيرًا في ذهنه دون أن يكون هُناك سبب أو مُبرر له.

ولقد أزاح التحليل النفسي أن هذا الرجل المُسن يربط غرام عنيف بابنة زوجته، وأن هذه التصرفات الشاذة التي أخذت مظهر الخوف والجُبن إنما هي بديل لما يُعانيه من ميول كي تزيح تفكيره عن الرغبات الجنسية

التي استحوذت على عقله، فكأن الخوف الجنسي والخوف من افتضاح حالته مع ابنة زوجته قد ارتد في صورة الخوف على حياته من شرور الحياة وشرور الناس.

أما القصة التالية فترينا لونًا آخر من الألوان التي تأخذ فيها النفس ثوبًا غير الثوب الأصلي الذي ترتديه، وهي عن شاب في فجر الحياة، من بيئة فقيرة ابتدرني قائلًا وعلى وجهه أمارات التعب الشديد «سيدي الطبيب.. أرجو أن تنقذني مما أنا فيه، فسوف أنتحر إذا لم أتخلص من مرضي»؛ فسألته «ما بك؟! وما الذي تشكو منه؟!»، فقال بسرعة ولهفة: «إني أشكو احتباس البول»، فظننت أن ما يُعانيه الرجل إنما من جراء مرض عضوي فقد تكون بالمثانة بعض الالتهابات مما قد يؤدي إلى الاحتباس، ولكن الكشف الطبي أثبت أن الجهاز البولي سليم وخال من كل الأمراض، فنظرت إلى الرجل وكأني أُريد أن أقول له بأن حالته سليمة وأظنه فهم معنى ما أرمي إليه فتكلم مُوضحًا الأمور، قال:

«أعرف أن حالتي الجُسمانية سليمة ولكن ينتابني خوف من أن يكون البول مُحتبسًا، على أني إذا ذهبت لأُجرب بنفسي رأيتني مُعافى، وبالرغم من سلامة نفسي وبالرغم مما أُحاوله لأقنع نفسي بأنني لست مريضًا إلا أن هذه المُحاولات لم تشفني وما زلت أُعاني من شكوكي في نفسي وخوفي من احتباس البول مما هد مضجعي».

هذه حالة نفسية لا تمت إلى المرض في شيء، ولكن قد يغيب أمرها على كثير من الأطباء فيظنون أن هؤلاء المرضى في حاجة إلى علاج جسمي فيعمدون إلى حقن المريض بمركبات الغرض منها استدرار البول أو مُعالجته ناسين أن المرض العقلي الكامن في ذهن المريض هو الذي يُسبب هذا الشعور، والشعور هُنا وهم، والوهم الذي يستحوذ على المريض يكون بمثابة كابوس مزعج يورق عليه حياته ويزعجه ويثير نفسه.

ولنعد إلى قصة مريضنا الشقي لنجد أنه فعلًا ذهب إلى عديد من الأطباء وحاول الكثير من الأدوية دون أن يصل إلى شفاء، وأنه ظل صريع الوهم حتى بات قريبًا من حافة الجنون أو الانتحار، ولقد تأثر عمله ونقص إنتاجه وضعفت صحته، وقد أصبحت حالته سيئة خالية من كل النور، ولقد اشتد الألم به مما جعله ينظر إلى العالم البغيض الذي أمامه بمنظار أسود، فبات كل شيء يبدو في دكنة ساكنة حزينة حتى أن ابنه الصغير الذي يعبده ويحبه بات لا يُقدر، من كثرة ما به من ألم، بات لا يقدر على النظر إليه.

إننا نقف هُنا لحظة لنجد من فلتات اللسان فرصة تصل بنا إلى الطريق السليم فكل كلمة ينطق بها الإنسان تُعبر عن معنى خفي، فاحتفظت بجملة كراهيته لابنه لأربطها بسلسلة مرضه، ولقد فهمت من حديثه أن مرضه بدأ به منذ أربعة أشهر ثم راحت حالته تتحسن نوعًا ولكنها عادت إلى أشد ما كانت عليه مما جعل حياته جحيمًا، وجاءني في اليوم التالي ورحت أتحدث إليه عن حياته العائلية. فأخبرني بأنه كان موفقًا

في زواجه وسعيدًا في بيته فقد جاءت زوجته نتيجة حب عميق، وهي امرأة مثالية ثم راح يطنب المديح لها ويكثر الكلام عنها، وبعد ذلك راح يتردد علي يوميا دون أن يخرج كلامه عن هذا المعنى.. وبعد أسبوع من زيارته لي قال بأن ما حدثني عنه لم يكن نتيجة حب، وإنما نتيجة صدفة ومنفعة فقد جاءه أخوه مرة وأشار عليه أن يتزوج لأنه بلغ به السن مبلغا وأنه يعرف فتاة ثرية وجميلة ومناسبة، ولكنه اكتشف بعد الدخلة أن مشورة أخيه غير سليمة، ومن أجل ذلك راح يعيش مع زوجته جحيما..

وبعد أسبوع آخر من زيارته لي بعد أن اطمأن لي ووضع كل ثقته في شخصي راح يحدثني حديث الصدق فبدأت تنجلي أمامي الأسباب التي أدت إلى احتباس البول أو بمعنى آخر الأسباب التي أدت إلى انهياره العصبي؛ فقد فهمت منه أن المتجر الذي يعمل فيه أرسله مرة الى إحدى السيدات ليحصل دينا عليها، وزوده بمعلومات صريحة فيها معنى التهديد بأنها إذا لم تدفع ما عليها فسيلجأ المتجر إلى مقاضاتها، وأرادت السيدة أن تكسب بعض الوقت فطلبت إمهالها أسبوعا مقابل أن تعطيه نفسها، ورضخ الرجل للإغراء وأجل الإجراءات المالية فترة كما أرادت، وفى اليوم التالي أحس بمرضه وقد شك في أن تكون هذه السيدة مصابة ببعض الأمراض وأنها نقلت اليه العدوى فراح يعرض نفسه على الأطباء الأخصائيين في الأمراض التناسلية، وقد أكد له هؤلاء خلوه بتاتا من المرض، ولكنه لم يقتنع فقد تملكه الشك والظن، ومازال يشتد به المرض حتى بات قريبا من الجنون.. وفى غمرة الاضطراب العصبي أفصح الرجل الى امرأته عن حقيقة ما كان يساوره من هموم فتحسنت حالته نوعا نتيجة

للعبء الذي أزاحه من على صدره ولكن العصبية لم تلبث أن عادت إلى حالتها الأولى

ولفتة سريعة على شخصية هذا الرجل، نجد أنه متدين يقيم وزنا كبيرا للمبادئ الدينية فهو يعتقد أن فعلته مع تلك السيدة جريمة شنعاء، ولقد كان اعترافه الى زوجته بمثابة التوبة وطلب الصفح والغفران حتى يرضي ضميره، ولكن هذا الاعتراف لم يشفع له ولم يقبل ضميره توبته وظل ثائرًا عليه.

وثمة لفتة أُخرى على هذا الرجل نجد أنه لا يحب زوجته وأنه دائم الخصام معها، ومن هنا كانت ثورة الضمير، فبالرغم من الاعتراف للزوجة فكأن لسان حال ضميره يقول له: كيف إذن تعق زوجتك المحللة لك وتترك نفسك لامرأة أُخرى تستهويك، ومن ثم اضطربت نفسه وخالجه هذا الإحساس المريض وراح يعيش في جمود ذهني فكان شعوره بالرضى فيه إحساس الندم وإحساس عدم العودة إلى الجريمة.

وهذا الشعور يشبه شعور فتاة في ريعان الشباب جاءت تشكو لي همًا وذلك أنها رأت مرة سيدة كانت تركب معها الترام، وكان وجه هذه السيدة قبيحًا وقد رسخت صورة هذه السيدة ذات الوجه القبيح، رسخت في ذهنها بشكل قوي حتى باتت غير قادرة على أن تنزع نفسها من ذلك الخيال العنيف، فكانت تتصورها في الصباح وفي المساء وفي كل وقت، ومن أجل ذلك الأرق النفسي جاءت لي تشكو همها.

إن تفسير هذه القصة سهل وبسيط، فهذه الفتاة لها وجه ذميم، يهودي السحنة، وهي أقرب في طابعها وشكلها من المرأة الذميمة التي رأتها في الترام، ومن ثم رسخ في ذهنها أن مُستقبلها عندما تتقدم بها السنون سيكون أشبه بتلك المرأة الذميمة، فخالجها القلق عن نفسها ومصيرها. ومما زاد في حسرتها أنها كانت مخطوبة إلى شاب رقيق العاطفة حلو العشرة والمظهر فراحت الظنون تُلاحقها عن المصير الذي تستهدف إليه وعن الكآبة التي تنتظرها في خريف حياتها عندما تقترب شمسها من الانحدار، مما قد يُؤدي إلى ضياع الزوج المُنتظر، فكأن الحزن القابع في نفسها إنما يتركز في المصير السيء الذي ينتظرها.

وهذه القصة التالية مأساة عائلية تخفي وراءها لونًا من الألوان القاتمة الذي يخيم في حزن عميق على بعض الناس. وهي قصة مثيرة لامرأة في الثلاثين بها شيء من الوسوسة والخوف، فكل بضع دقائق تدعو الله قائلة «يا رب احفظ لي زوجي وأولادي» ويُسيطر عليها الرعب بشكل عنيف فهي تخشى أن يعبث الأولاد بسكاكين المنزل مثلًا فيتعرضوا للخطر، ومن أجل ذلك تحفظ هذه السكاكين في مكان أمين وبعيد عن الأيدي، وهي لا تسمح للخادمة أن تقف بجوار النافذة مثلًا بينما تحمل معها طفلتها لأنها تخشى أن ينتاب الخادمة دوار أو تعتريها لطشة عصبية فتسقط منها الطفلة أو تلقي بها إلى الشارع، وينتابها أرق شديد فتقضي مُعظم ليلها مُتقلبة ساهرة، وهي ضعيفة الشهية للطعام تشعر بقلق واضطراب عصبي، وهي لا تجرؤ أن تظل وحدها في مكان، ومن أجل ذلك تطلب من زوجها أن يلغي كل مُقابلاته ليظل جالسًا إلى جوارها مُمسكًا بيدها في عطف وحنان، وهي

دائبة الحزن كئيبة النفس فتجلس في أسف ثم لا تلبث أن تنفجر باكية.. ولقد اشتدت الجذور المريضة في نفسها وراح الشك يملأ كل قلبها، فكانت تشك في حقائق الأشياء، وفي الحقائق الملموسة وفي حقيقة الوجود وفي حقيقة العالم الذي يعيش حولها، وكانت تُسائل نفسها «هل اليوم السبت؟!» ثم تُراجع نفسها قائلة «لعلي خاطئة وأظنه الأحد؟!» وكانت إذا نظرت إلى رجل مثلًا تساءلت «هل هذا إنسان؟! أظنني مُخطئة.. ولكن سأُبحلق فيه لأتأكد من أنه إنسانٌ؟!».

إن سبب كل هذه المأساة بسيط فقد اختلف زوجها مع عائلتها وأهان والدها بألفاظ نابية، وفي هذا الخصام اختارت أن تقف إلى جوار زوجها فكانت تُدافع عنه أمام عائلتها، ولكنها كانت في قرارة نفسها تلقي اللوم على الزوج، فتُردد القول «لو كان يحبني لما تصرف بهذا الشكل مع عائلتي ولأقام وزنًا لكرامتي واحترامي». وقد قاطعتها كل عائلتها ولم يتصل بها أحد منهم اللهم غير ابن عم لها كان يتردد عليها من حين لآخر، وكان في هذه الصلة ما أثار كل ذكرياتها فراحت تلقي عليه كل عواطفها فأحبته على أن هذا الحب اصطدم بظروفها كامرأة مُتزوجة ولها أولاد، فإذا أرادت أن تملكه فيجب عليها أن تتخلص من زوجها ومن أولادها، فانقلبت الرغبة التي تجيش في صدرها لأن يموت زوجها ويموت أولادها كي تتمكن من أن تتزوج الرجل، انقلبت هذه الرغبة إلى قلق وحيرة فاضطراب فتوتر عصبي فانهيار نفسي، وبدت انعكاسات تلك الرغبة في سريرة قلبها ومن ثم كانت تدعو الله كل حين لأن يحفظ لها زوجها ويحفظ أولادها.

إن كل الرغبات اللا إرادية إنما مصدرها الشعور الداخلي الكامن في النفس، وأنت إذا تعمقت في حقيقة هؤلاء المرضى وجدت أن سبب اضطرابهم وأحزانهم هو الصراع النفسي الشديد، هذا الصراع يُؤدي في كثير من الحالات إلى القلق، فالاضطراب العصبي، فالانهيار النفسي.

الوسواس الخناس أو النزعات الإجرامية

لعل من الطريف أن نذكر أن مُعظم الأطفال قد يحدوهم في كثير من الأحايين الميل الإجرامي فتنتابهم لحظات يحسون فيها بجوع نحو الجريمة أو بتعطش كبير نحو الدماء، ولقد مرت بي حالات كثيرة تمكنت خلالها أن أدرس نزعة الجريمة التي تجيش في قلوب الكثير؛ فالطفل في الواقع صورة للإنسان البدائي الذي انتقص التهذيب، ومن ثم تبدو الغرائز الطبيعية الأولى مُجسمة في شخصه، وهو أناني مُحب لنفسه ومن أجل الأنانية يُحاول أن يأخذ إلى نفسه كل شيء يقع عليه ناظره، ومن أجل هذه الأنانية أيضًا لا يقيم وزنًا للمبادئ أو المثاليات، ومن أجل هذه الأنانية أيضًا يذهب إلى الحضيض المادي والمعنوي، فهو لا يعرف النظافة المادية أو المعنوية فيوسخ ملابسه ويوسخ نفسه ويوسخ ضميره دون أن يتورع عن الخطايا أو الدنايا.

أعرف قصة طفل في السابعة من عمره، مات عمه الذي كان يتكفله فسرعان ما راح يمرغ نفسه في الوحل ثم بعد ذلك راح يقتل كل قطة تُقابله، وتفسير هذه التصرفات أنه قيل له أن الإنسان مخلوق من طين فكان يمرغ نفسه في الوحل ليتبارك بالطين الذي يرقد عمه في ترابه، وكان

يقتل القطط لأنها رسخت في ذهنه بأنها رمز للحيوان الشرير الذي يخطف فريسته ويهرب بها، وفي هذه تشبيه ضمني لملك الموت الذي يختطف الأرواح ويذهب بها إلى السماء، على أن نزعات الجريمة التي تبدو مُبكرة في الطفولة سرعان ما ترتوي ويظهر رد الفعل بشكل أكبر خلال الكبر.

أعرف رجلًا عصبيًا يظن أن في طاقة الإنسان أن يجعل عضلاته في قوة الفولاذ وبذلك يُمكن له أن يعيث في الأرض فسادًا، وهذا الخيال شبيه بخيال الأطفال، فمع أن الرجل قد كبر إلا أن عقله وتفكيره وميوله الإجرامية ما زالت صبيانية.

وأعرف شابًا في الثلاثين من عمره كان إذا رأى رجلًا مُنحني الظهر سرعان ما ينتابه غيظ شديد واضطراب نفسي وراح يتحرش به يريد مُخاصمته، وقد أزاح التفسير النفسي بأن مرد ذلك راجع إلى الطفولة، فقد تعود والده أن يقول له وهو طفل «سر مُعتدل القامة» وقد رسخت هذه الجملة في ذهنه ولما كبر نساها ولكنه كان يغضب لأن يرى رجلًا مُنحني الظهر.

وهُناك المريض الذي يشعر كأن عبئًا ثقيلًا على كتفه وكأن الدنيا تستعجله في عمله، فهو دائم الخوف كثير الشكوك يعتقد أن العمل الذي أمامه كثير ومهم وهو كثير الاكتئاب وكثير الكلام عن متاعبه يشعر كأن لسان حاله يُريد أن يقول «أنا لم أنته من عملي ويجب أن أُؤدي كل شيء».

ومرد هذا الشعور يعود إلى الطفولة عندما كان يستحثه والده في مذاكرة دروسه فيقول له «هل انتهيت من واجبك؟» فقد تعود والده أن يُراجع له كل دروسه ويُساعده على المُذاكرة والحفظ وكان يطلب منه أن يعيد كتابة الكلمات التي أخطأ في حفظها، وكان الولد ينظر إلى تصرفات الوالد معه عندما يطلب منه إعادة تصحيح الأخطاء نظرة العقاب ونظرة التلميذ إلى الأستاذ.. وعندما كبر الطفل ارتدت صورة تلك الفترة الممسوخة من حياته على أحداث الكبر، فبات ينظر إلى كل شيء بمنظار الماضي، فمرض، وكانت النتيجة هو ما رأيت من شعوره الذي يُعانيه وإحساسه بالخوف والشك واعتقاده بتكدس الحياة على ظهره.

وأعرف فتاة كانت وسواسة وقد تركزت وساوسها على أُذنها فكانت تغتسلها في اليوم عشرات المرات، وبالرجوع إلى ماضيها وجدنا أن أمها كانت كثيرة الاعتناء بها كبيرة الاهتمام على نظافتها وكانت تشرف بنفسها على تنظيفها، وقد ارتدت صورة الطفولة في شكل مبكر على حياتها الراهنة حتى بدت في حاضرها الباهت.

وأعرف شابًا كان وسواسًا في تنظيف أسنانه فما تكاد تمض ساعة من الزمن حتى يذهب إلى دورة المياه ويُنظف فمه وأسنانه، وكان يحتفظ معه دائمًا بفرشاة ومعجون أسنان، وكان مرد ذلك الخاطر أن أُمه سلطت على طفولته إيحاءً قويا بضرورة الاعتناء بتنظيف الأسنان فكانت تُنظفها له في الصباح والمساء، وقد ارتدت هذه الصورة الماضية التي عاشت في طفولته على حياته الراهنة فكان مظهرها هذا الوسواس.

هذه النزعات الشاذة تُسيطر على عقلية الكثير فيحسون خلالها كأن هاتفًا من أعماقهم يُناديهم لأن يهبوا ويفعلوا ما يأمر به فينصاعوا دون تفكير ودون مقدرة على عصيان أمر ذلك الهاتف، على أني أتساءل ماذا يكون شأن هؤلاء، لو أن هذا الهاتف الذي يُناديهم ويأمرهم، كان هاتفًا إجراميًا عنيفًا عن كونه بسيطًا ميسورًا.

إن أشد أنواع التعذيب النفسي الذي ينتاب المجرم هو ذلك الشعور الذي يسبق وقوع الجريمة، ففي ذلك الحين ينتابه انفعال عنيف، لأن الهاتف الذي يُناديه من أعماقه ليدفعه للجريمة يلهب نفسه ويدفعه للجريمة، بينما الخوف من القانون يُراجعه العودة ويطلب منه المساءلة، وفي هذا الصراع النفسي الشديد يُقاسي المريض الويلات من الآلام العصبية.

إن هؤلاء الذين يخافون الهاتف العميق الذي يجيش في صدورهم، هؤلاء يعيشون في رعب لأنهم يخشون أن يستيقظ فيهم هذا الهاتف يومًا ويدفعهم نحو شرور لا طاقة لهم بها، فكان خوفهم مُضاعفا، فمصيبتهم في الخوف الذي يسبق الجريمة والخوف من أن يوقظ فيهم التفكير في الجريمة.

ولقد حدثتنا التجارب عن خوف عميق راسخ في قاع النفس عن بعض الناس الذين يخشون من أن تستيقظ فيهم لطشة من الجنون أو أن يستولي عليهم شعور يحدوهم لأن يشعلوا النار في الدار، أو أن يلقوا بالسموم في الطعام، ولقد دلتني تجاربي أن النساء أكثر عرضة للإصابة بهذه الأمراض عن الرجال.

وهذه قصة فتاة في التاسعة والعشرين جاءت تسألني المشورة لما ينتابها من إحساس غريب يستولي على جميع حواسها ويطلب منها أن تقتل زوجة أبيها. وهذه الفتاة تمتهن التدريس وتتمتع بصحة جيدة واحترام موفور من زميلاتها وتلامذتها ورؤسائها، وقد أتاحت لي الفرصة لأن أتعرف على والدها فوجدته رجلًا مُحترمًا موفور الصحة كما وجدت زوجة أبيها مُحترمة أيضًا، وقد توفيت أمها عقب ولادة أخيها الذي كان يصغرها بعامين، وبعد وفاة الأم بعشرة سنوات تزوج الأب، على أنه لم يخلد كثيرًا بعد زواجه الثاني فاختطفه الموت، وكانت معاملة زوجة أبيها لها بعد وفاة والدها ممزوجة بالعطف والحنان.

كانت وهي طفلة صغيرة طيعة رقيقة الشعور والإحساس وقد أمضت فترة الطفولة في مدرسة داخلية، وفي هذه المدرسة شربت تعاليم الدين فقد أغلقت عليها الأبواب، وحرمت عليها اللون الباهت، فعاشت الفتاة في جمود ذهني، وفي هذا الجمود كانت نفسها مسرحًا كبيرًا للنزاع النفسي العنيف، وكانت تترك مدرستها بين حين وآخر لتزور والدها في داره فتقضي معه يومًا او بعض يوم فكانت تحس بالحسرة عندما ترى السعادة تخيم على الدار، بينما تعيش في حرمان بعيدة عنها.

وبلغت السابعة عشرة فتركت المدرسة الداخلية والتحقت بالجامعة، ولكنها ظلت تخشى الاقتراب مما قد يشينها أو يخدش كرامتها فكانت تتحاشى الأماكن التي يزدحم فيها الرجال وكان أخشى ما تخشاه هو ان يكتشف أحد من الناس ذلك الخوف الذي يجيش في قلبها ومن ثم عاشت

في قلق واضطراب نفسي، وكانت إذا قابلت رجلًا ظهرت عليها بوادر الانفعال.

وبلغت الخامسة والعشرين وتعرفت إلى أحد المدرسين زملائها ولكن زوجة أبيها حذرتها من ذلك الرجل ومن أغراضه السيئة. وحدث مرة أن دعاها ذلك الشاب إلى رحلة خلوية ولكنها تمهلت قبل أن تعده، ثم راحت تسأل زوجة أبيها الرأي وطبعا نصحت لها بألا تقبل الدعوة، وأحس الشاب بشرخ في قلبه فقطع علاقته بالفتاة وانفصل عنها.

بعد ذلك جلست الفتاة وحدها تبكي سوء حظها ثم راحت تلقي اللوم على زوجة أبيها لأن نصيحتها الغبراء كانت السبب الذي أضاع الشاب، أو بمعنى آخر أضاعت زوجًا كان يُمكن أن يُقدم لها كثيرا من السعادة. وكبرت بها السن دون أن يتقدم لها أحد من الخطاب فراحت ثورتها تزداد عُنفًا على زوجة أبيها، كما راحت في الوقت نفسه تلوم نفسها على التمسك بالدين، فلو أنها كانت أقل لينًا في جمودها الديني وتساهلت بعض الشيء لكانت أحسن حالًا. ولتمكنت من أن تأسر لها زوجًا يلم شملها، وفي ثورة الغضب على نفسها راحت تلعن الزمن وتلعن الدين الذي تمسكت به والذي كان سببًا في ضياع الرجل منها.

وفي أحلامها وخيالاتها وتمنياتها كانت ترى نفسها تطعن زوجة أبيها بسكين، وكان يشتد بها الاضطراب والصراع النفسي، وفي ثورة العاصفة تنقلب على نفسها فتُفكر في الانتحار، وقد ترددت على بعض الأطباء

فنصحوا لها أن تترك المدينة وتذهب إلى الريف لتقضي فيه بعض الوقت طلبًا للراحة والهدوء، وفعلًا سافرت إلى الريف ولكن حالتها ازدادت سوءًا، ثم جاءتني تطلب العلاج. وقد أزاح التحليل عن هذه المرأة شذوذا جنسيا كامنا في نفسها، فقد كانت تشتهي زوجة أبيها، كما أرانا التحليل أيضًا أنها في الوقت نفسه شديدة التعلق بأخيها.

والغريب في هذه النزعات الإجرامية التي تُخامر هؤلاء المرضى أنها تتجه نحو شخص مُعين بالذات، فإذا اختفى هذا الشخص من أمام عين المريض اختفت النزعة الإجرامية التي تجيش بصدره، والغريب أن هذا الشخص الذي تثور ضده النزعات الإجرامية يكون أكثر الناس حُبًا إلى المريض وأشدهم قُربًا إلى قلبه، وأن هذه الثورة مردها العجز عن الإشباع العاطفي فينقلب الحب إلى بُغض شديد وكراهية مريرة ورغبة في الانتقام.

وفي قصة الفتاة التي ذكرناها كان الضغط العصبي شديدًا على ذهنها، فقد كانت تميل إلى زوجة أبيها وكانت تميل إلى أخيها في الوقت نفسه بينما عجزت عن الحصول على أيهما، ومن هنا كانت النكبة النفسية مُضاعفة.

وأنتقل إلى قصة أُخرى، وهي لشاب في الخامسة والثلاثين ينتابه ميل قوي لأن يقتل عمته، وهو دائب التخيل عن كيفية تنفيذ هذا الشعور الذي يجيش بصدره، فكثيرًا ما يتصور نفسه يقتل عمته بسكين ثم يُمزقها إربًا. وقد فهمت أن عمته كانت تحول دائمًا دون زواجه ودون تمكينه من

إقامة دار مُستقلة لنفسه وأن سُلطانها كان يزداد عليه يومًا بعد يوم لكثرة ثورتها واحتياجه ماديًا لها. ومما زاد في أحزانه أنه كان يعجز عن القيام بمهمة الزواج لاعتماده على عمته في كثير من المسائل، ومن ثم راحا يلعبان اللعبة القديمة، فهو لا يحب الفتاة التي تختارها له وهي لا تميل إلى الفتاة التي يختارها لنفسه، ومن ثم ظلت اللعبة تتأرجح بينهما دون أن يتفقا على فتاة تروق لكليهما.

الواقع أن التعلق الشديد بينهما والرباط القوي هو السبب الذي يحول دون الزواج، مما بات واضحًا أمام الفتى أنه لا يُمكن له أن يتخلص من عمته إلا بوفاتها، ومن هُنا كانت تخيلاته فيما يرى من نزعات نحو الجريمة، ورغبته التي تجيش في صدره لكي يقتل عمته.

وهذه قصة امرأة في الثلاثين من عمرها تعتريها خيالات الرغبة بأن تطعن ولديها الاثنين بسكين أو أن تلقي بهما من النافذة، ومن أجل ذلك كانت لا تجرؤ بأن تحملهما لأنها تخشى أن يتغلب هذا الخاطر الشرير الذي يجيش في صدرها فتُنفذ جريمتها فكانت تضع أولادها في حجرة وتحكم إغلاق النافذة وإغلاق الباب عليهما، وهي إذا دخلت إليهما راحت تتأكد من أنها لا تحمل معها سكينًا أو أي شيء آخر قد يُسبب القتل، وهي تضع السكاكين في مكان أمين، في دولاب وتحتفظ بمفتاحه مع زوجها أو مع «الطباخ».

وتفسير هذا الحدث أن خلافًا كبيرًا نشب بين الزوج و(حماته)، فقد تعودت حماته أن تتردد على دار ابنها وتخلق صعوبات عائلية، مما دعا الزوج لأن يطردها من داره ويحرم عليها زيارتها مرة أخرى. وقد انضمت الزوجة إلى الزوج، ولكن في قرارة نفسها كانت تشعر بحزن للإهانة التي لحقت أمها، وقد جاء الخاطر الذي وسوس لها أن تقتل ولديها كرد فعل للسان حالها الذي كان يقول «لولا أبنائي لكنت حرة في تصرفاتي ولتركت زوجي في الحال وانضممت إلى جانب أمي».

إن هذه المرأة تحب زوجها وفي الوقت نفسه تحب أمها، ولكن الصراع الشديد الذي كان يجول في ذهنها عمن تُفضل بين أيهما تنضم كان السبب الذي أثار أعصابها وبالتالي أدى إلى الانهيار النفسي.

ومن القصص الأُخرى الكثيرة الحدوث في حياتنا العامة والشبيهة بهذه القصة قصة الخلاف الذي ينشب بين الأم والزوجة، وفي هذا الخلاف يتحير الرجل في الانضمام إلى أي الجانبين، فهو يحب زوجته وفي نفس الوقت يحب أمه، وفي هذا الصراع من الحيرة العنيفة يسقط فريسة للانهيار النفسي.

وهذه قصة رجل في الأربعين مُتزوج من امرأة يحبها حُبًا عنيفًا، ولكنه يحس بميل شديد من أعماقه يدعوه لقتلها، ولم يجد حلا لأحزانه الكامنة إلا أن يسر لزوجته بهذا الشعور الغريب الذي يُساوره، ولكنها ردت عليه بأنها لا تخاف الموت إذا كان الموت هو الوسيلة الوحيدة التي تُوفر له السعادة.

ومع ذلك ظل الرجل يتخبط في أحزانه دون أن يتمكن من الاهتداء إلى النور، ولما أظلمت الدنيا عليه راح يُحاول الانتحار.

وقد أظهر لنا التحليل أن هذا الرجل يعيش مع زوجته وأمه في بيت واحد، ولكن لسوء الحظ كانت (المرأتان) في خصام مستمر مما بات واضحًا بأنه يجب أن يُضحي بواحدة منهما في سبيل الأخرى، وكان في ذهنه أن يجعل من زوجته (كبش الفداء) لأن النزعة الإجرامية التي كانت تجيش في صدره كانت مُوجهة ضد الزوجة.

والقصة التالية لامرأة في الثانية والستين من عُمرها، يخامرها شعور قوي لأن تقتل أي إنسان يُصادفها، والغريب في هذه القصة أن سنها المُتأخرة كانت من الأمور التي أثارت انتباهي؛ فأنا لم يُصادفني مريض تعدى الستين اللهم غير رجل واحد كان في السادسة والسبعين من عمره، وكان يشكو من هوس في عقله، فقد كان معظم مرضاي بين العشرين والأربعين مما أكد لي أن مُعظم الصغار عرضة للإصابة بالوسواس عن الكبار.

وهذه القصة تهدم كل تأكيداتي وتعلمني أن الأمراض تصيب الكبار كما تصيب الصغار أيضًا. وورثت هذه المريضة أمراضًا عقلية من بعض أفراد أسرتها فقد توفي أحد أعمامها في مستشفى للأمراض العقلية، أما حياتها فكانت سلسلة متتابعة من القلق، فقد ظلت طوال حياتها تعيش في رعب. وقد كانت تخشى أن تأتي أمرًا يسئ إلى بعض الناس بأن تقتل أحدًا أو تشعل النار في بعض المساكن، أو أن تلقي بنفسها تحت عجلات الترام.

وكانت تشعر أمام الناس بالضعف والقلة وبمركب النقص. كما كانت تشعر كأن العالم يلهبها بالسياط ويستحثها على العمل، فكانت تحس كأن الدنيا تلقي عليها بالأحزان والهموم.

لقد كانت أعصابها تضطرب كلما ظهر أمامها لون فيه رمز للجريمة، فإذا رأت مثلًا سكينًا سُرعان ما انتابها انفعال نفسي وقفزت إلى ذهنها فكرة قتل ابنها بهذا السكين. وهي تُحرم على نفسها رُؤية الزهور الحمراء لأن اللون الأحمر يحمل بين طياته لون الدماء وهي لا تريد أن ترى الأشجار المشذبة لأن الأغصان مقطوعة بالسكين.

ورأينا من الضروري أن نضع في خدمتها مُمرضة تشرف على رعايتها فاخترنا واحدة كان اسمها «ماري أنطوانيت». ولكن هذا الاسم استفز كل مشاعرها فقد حمل معه أحداث الثورة الفرنسية وذكريات المقصلة، فراحت تنفر منها ومن كل مُمرضة أخرى، وكان في اسم ماري أنطوانيت ما أزاد حالتها توترًا وعقد مشكلة العلاج أمامنا.

ولقد بلغت حالتها النفسية حدًا كبيرًا حتى باتت على شفا حافة من الجنون، وكان إذا جلس ابنها على كرسي أمامها راحت تصرخ فماري أنطوانيت تُذكرها بالمقصلة بينما ابنها يجلس أمامها؛ فكان دوره سيأتي بعد ماري أنطوانيت، فإذا هم ابنها وجلس على كرسي آخر ازداد صريخها لأنها كانت تظن أنه بتنقلاته هذه ينقل العدوى بين الكراسي فتزداد حالتها توترًا وشدة.

وعلاج هذه القصة يتوقف على نزع الأفكار المريضة التي تثير هذه المرأة، وعلى مُحاولة التدرج بها في الحياة الاجتماعية، وكان يشتد بها المرض عندما تجد نفسها وحيدة لا يُشاركها أحد من الذين حولها في همومها وأحزانها التي تتخبط فيها. وهذا المرض أشد انتشارًا بين الطبقات الغنية، فالثروة من شأنها أن ترتفع بالإنسان وبالتالي تجعله يعيش بين أمواله في عزلة.

وهذه المرأة تعيش في بحبوبة من الثراء والجاه وهي تخشى أن يغتالها بعض الناس ومن هُنا راحت تخشى كل شيء أحمر لأن الاحمرار لون الدم؛ فلو لبس ابنها رداءً أحمر أصبح حينئذ في نظرها رمزًا للخطر الذي يتهددها، فإذا جلس إلى كرسي انتقل الخطر إلى ذلك الكرسي، كما تصبح المنضدة المواجهة للكرسي في خطر أيضا. وهكذا ينتقل الخطر من مكان إلى مكان بالعدوى حتي يمس البيت كله خطر مُخيف وتصبح حياتها كلها مملوءة بالخطر والرعب.

وأنتقل إلى قصة مريضة أُخرى في الثالثة والثلاثين، وهي ابنة أحد الأطباء، وقد جاءتني بصحبة أبيها، وبعد عدة زيارات راحت صحتها تتقدم نحو الشفاء حتى أصبحت سليمة تمامًا، وبعد انقضاء ستة عشر شهرًا من الشفاء التام طلبت منها أن تكتب لي تاريخ الداء وتطور العلاج معها فقالت:

لعل أول الأحداث التي انتابتني ما حدث لي عندما كنت أسير ليلًا خلال بعض الشوارع فقد صادفت في طريقي رجلًا أحدب الظهر فانتابني خوف شديد وفزع عنيف فرحت أُهرول في سيري وأنا أكاد أفقد شعوري. وأسرعت إلى داري، ولسوء حظي لم أجد أحدًا هُناك لا أبي ولا أمي ولا أختي اللهم غير (الطباخة) وكانت امرأة جامدة القلب فلم تشعر نحوي بعطف أو شفقة فجلست حزينة.

وسرعان ما عادت صورة الرجل الأحدب إلى خاطري فانتابني رعب شديد وأحسست برغبة في الصراخ، ولكني تمالكت نفسي وضغطت على أعصابي، وهكذا راحت صورة الرجل الشرير تتماوج أمام خيالي من حين لآخر تحمل بين جوانبها الرعب والخوف مما يُثير أعصابي ويهد نفسي.

وكنت أحس بالوحدة إذا ظللت وحدي في الدار، ولكني إذا كنت بصحبة بعض الناس كنت أكثر اطمئنانًا، وتزوجت أختي وذهبت لزيارتها بصُحبة أمي، ولكني عندما عدت من عندها شعرت بميل شديد للبكاء، وراح هذا الميل الحزين ينتابني كلما ترددت عليها.

وكنت أحس كلما جلست مع أختي بإيحاء قوي في أعماقي يحرضني لأن ألقي في وجهها بالأطباق التي أمامي أو بسكين أو أقذفها بأي شيء، وكنت أجد صعوبة شديدة في السيطرة على أعصابي، ولكن الخوف من أن يفلت الزمام من يدي كأن يلقي بي إلى هوة عميقة من الرعب، وكنت أجد في هذه الهوة ما يزعجني ويهز أعصابي.

واشتدت حالة المرض عندي حتي بت فريسة للانهيار العصبي، وكنت أشعر بذلك الميل الإجرامي لكل من أُقابله وأسررت إلى أمي بمخاوفي فراحت تتنقل بي من طبيب إلى طبيب دون أن يتقدم بي العلاج، وأخيرًا ذهبت إلى سيجموند فرويد الذي أحال قضيتي على الدكتور وليم شتيكل.

ولقد أزاح التحليل النفسي عن ثلاثة أمور كان لها الأثر الكبير على نفسيتها

أولًا: التدين الشديد الدي يمتزج به قلبها.

ثانيًا: التعلق الشديد بزوج أختها.

ثالثًا: الشك العنيف في كل إنسان.

فالتدين الشديد كان له أثر كبير على نفسيتها، فقد أغلق قلبها عن كل بصيص باهت يهدف نحو «الجنس»، ومن ثم عاشت في حرمان وكان لهذا الحرمان أكبر الأثر على حياتها الشخصية، ولقد راح الصراع النفسي الشديد يلعب دوره على مسرح حياتها فباتت نفسها موضع نزاع بين الرغبة والرفض، كانت نفسها تطلب وكانت تعاليمها ترفض، فكانت نفسها ثائرة على التقاليد والبيئة والمجتمع، وهذا ما جعل العالم يبدو أمامها في صورة الأعداء الذين يُحرمون عليها المُتعة فراحت تتمنى زوالهم، وكان زوج أُختها واحدا من هؤلاء الرجال الذين اشتهتهم، ولكن وجود أُختها

كان بمثابة حجر عثرة تحول دون رغباتها، ومن هُنا تمنت زوال أختها حتى يخلو لها الجو.

أما الشك في جميع الناس فكان نتيجة العوامل النفسية التي تختلج في قلبها؛ فهذه المرأة كانت دينة وكانت تعاليم الدين تحرم عليها الجنس، بينما هي في قرارة نفسها تمنت أن تشرب من نهر الحب. ومن أجل ذلك راحت تُسائل نفسها عن السبب الذي يدعو رجال الدين أن يُحرموا عليها الحب، اللهم غير النفاق ومن أجل ذلك الخاطر راحت تشك في الدين وفي رجال الدين وفي كل العالم المُحيط بها.

يلجأ الإنسان في كثير من الحالات التي يشتد فيها الهوس به يلجأ إلى التعبد الشديد؛ فالتعبد رمز للنهاية أو الموت الذي تبدأ فيد حياة جديدة، على أن هذا التعبد الشديد غالبًا ما يكون خاليًا من الروح يُؤديه صاحبه في شكل أوتوماتيكي دون تفكير.

وتتميز كل الحالات التي يثور فيها الهوس أو تثور فيها النزعات الإجرامية تتميز بالطابع الآتي:

١- الرغبة الشديدة للموت أو الانتحار.
٢- الرغبة الشديدة في الارتداد لعهد الطفولة.
٣- مُحاولة إيجاد تسوية نفسية بين الرغبات الكامنة في العقل الباطن وبين رغبات العقل الواعي أو الضمير.
٤- وفي كثير من الأحايين تُمازج هذه الرغبات صبغة دينية.

وأنتقل إلى قصة أُخرى وهي لامرأة في ربيع الحياة تشكو من قلق واضطراب شديد عصبي وانهيار نفسي فتجلس صامتة لحظات ثم تنفجر باكية دون أن يكون هُناك سبب للحزن أو البكاء. وينتابها شعور قوي للجريمة وميل كبير لقتل أولادها، فإذا هجع أطفالها في السرير جلست على حافته وراح شعور الجريمة يُخامرها فلا تلبث أن تُغادر الحجرة بسرعة خشية أن يتغلب هذا الخاطر عليها فتُنفذ الجريمة ثم تجلس في الحجرة المُجاورة وتنفجر باكية كما يُسامرها خاطر الموت، فهي تخشى على نفسها بأن تلقى بها تحت عجلات الترام وتخشى أيضًا أن يُغمى عليها في الطريق العمومي فتضيع بين العجلات.

بدت أحزانها تأخذ الثوب القاتم عندما انتقل زوجها سعيًا وراء العيش وتركها وحدها في صُحبة أولادها إلى أن يستقر به المقام في البلد الجديد، وعندما طلب منها أن تُوفيه بزيارتها، عندئذ انتابها هذا الخاطر المريض. وقد أرانا التحليل النفسي امرأة تُعاني البرود الجنسي تبغض زوجها شدة البغض وقد وجدت في غيبة زوجها فرصة مُناسبة للابتعاد عنه وبالتالي للتخلص من وجوده.

وعندما طلب منها أن تلحق أحست بالغمة فقد كان شعورها الكامن كان يتمنى لو أن يتركها الرجل وشأنها، بعيدة عنه ولكن ذلك لا يتأتى إلا بالفراق.. والفراق من الأمور التي يصعب تنفيذها خصوصًا إذا كان يربط الزوجين أطفال فكأن وجود الطفال ما يحول دون سعادتها، وبالتالي كانوا سببًا لأحزانها، ومن ثم راح يُسامرها خاطر التخلص منهم وهو الميل الذي

كان ينتابها لكي تقتلهم، أما البكاء فكان مرده حنان الأمومة وتأنيب الضمير على تمنياتها الموت لأولادها، أما ميلها لأن تلقي بنفسها تحت الترام فذلك لأنها كانت تخشى أن يتغلب عليها الخاطر الإجرامي فتقتل أولادها فعلًا فكأنها أرادت أن تقتل نفسها حتى ينجو أولادها أما الخوف من أن تُصاب بدوار ويغمى عليها في الطريق العام.

فهو رد فعل لانفعالها الجنسي، فهذه المرأة مُصابة بالبرود الجنسي محرومة من طبيعة الحياة والوجود، وهي في قرارة نفسها تحسد الفتيات الحارات اللاتي يلقين بأنفسهن بين أحضان الرجال دون أن يقمن وزنًا للرباط المُقدس، أما هي وهي المُخلصة التي عاشت في حرمان فقد كانت تود في قرارة نفسها أن تصبح طليقة من القيود حُرة في تفكيرها فكانت تتهيب السقوط، ومن ثم كانت تتمنى أن يُغمى عليها في الطريق، ففي السقوط في الطريق العام ما يعرضها أمام الرجال وفي ذلك تسوية لرغباتها المُتضاربة وإشباع للنزعات النفسية الكامنة التي تجيش في صدرها عن الميل نحو الرجال أو بمعنى آخر حل لعقدة البرود الجنسي في صدرها.

إن هؤلاء المرضى يُعانون مركب النقص يشعرون بأنهم محرومون من الحب فكأنهم في انزوائهم عن الحياة يُحاولون أن يستجلبوا العطف الذي لا يتمتعون به، كما أن لجوءهم إلى المرض إنما بمثابة عقاب لأنفسهم لعدم اكتمالهم النضوج والارتقاء، فالمرأة التي تحب زوجها قد تجد في الخروج إلى الطريق العام ما يعطيها فرصة التعرض للرجال ليغرروا بها مما قد يُؤدي بها

الطريق إلى الخيانة الزوجية ومن أجل ذلك تُؤاخذ نفسها عن التفكير في الخيانة الزوجية.

ومن ثم ترى الموت سببًا معقولًا كجزاء لما اقترفت نفسها، ومن هُنا نرى النزعات الإجرامية مصحوبة دائمًا بالانتحار، ولا شك أن الانتحار عند العصبيين هو أسهل وسيلة للهروب من المسئولية.

الشك

إن أشد الناس شكًا هو الذي يشك في شكوكه

الشك هو النزاع بين واقعتين تُحاول كل منهما أن تملي إرادتها، ويختلف الشكاك عن المُعتقد أو عن الكافر، فالمعتقد الواثق بالشيء أو الكافر به رجل وصل إلى شاطئ، أما الشكاك الظنان فهو مُتردد بين أيهما يصل، فهو أشبه بالضال في صحراء يسير فترة طويلة نحو الشمال ظانًا بأن الطريق الذي يسلكه يهديه الطريق فلا يلبث بعد أن يقطع شوطًا طويلًا، حتى يغير رأيه فيرتد نحو الجنوب ويعود من حيث أتى، حتى إذا وصل إلى النقطة التي بدأ منها عاودته الفكرة الأولى للسير نحو الشمال، وهكذا يقضي حياته بين الذهاب والمجيء دون أن يرى نجمًا يهديه السبيل.

وموضوع كلامنا هُنا عن الشكل العصبي الذي يقلق النفس ويثير المخاوف ويضعف الثقة فيها ويُؤدي إلى الانهيار العام، مما يُؤدي في كثير من الأحايين إلى الجريمة أو الجنون والقلق النفسي، وأنت لا يُمكن لك أن تجد القلق والاضطراب دون أن يصحبهما الشك والظن، والشك ظن وإثم، وإن بعض الظن إثم، والإثم يكون دائمًا ومصحوبًا بالخوف، والخوف يكون دائمًا مصحوبًا بالموت.

وليس هُناك قلق نفسي إلا وصحبته هذه الأسئلة «هل أفعل هذا أم لا أفعل؟! وتعقب هذه الأسئلة المُتلاحقة من التردد والشك الإجابات التي

تتابع في أسف وحزن لتقول للمريض: لا يجب ألا تفعل هذا، بل يجب أن تفعل هذا» فإذا لم تنجح في الوصول إلى ما تريد فقد ينجح آخر ويغلبك على أمرك.

ويحمل الشك معه ضعف الثقة، فالظنان الذي يكثر الشك في الآخرين إنما هو في الواقع يشك في نفسه ويحمل بين طياته عوامل السقوط والانهيار وأن الذي يثق في الناس هو في الواقع يثق في نفسه. والشك والاعتقاد كلمتان مثل الحب والبُغض، فليس هُناك من يعتقد في شيء قبل أن يشك فيه، مثله مثل المريض بالسادزم يكون في الوقت نفسه مريضًا بالماسوشيزم.

وهذه قصة رجل يمتهن المُحاماة يشكوك من اضطراب عصبي وتبدو عصبيته في أسلوب تردده في الحياة. فإذا ترك المنزل مثلًا في إحدى الأمسيات ليتنزه بعض الوقت انتابه قلق شديد واضطراب وراح يشك في كل شيء يُقابله، ويعتقد أنه ترك الدار مفتوحة دون اكتراث فيعود إلى نفسه قبل أن يُغادر باب بيته ليتأكد بنفسه من أنه أغلق النوافذ كلها، فيدور حول كل نافذة ليقتل الشك باليقين ثم يتأكد من أنه أغلق غاز الاستصباح، وبعد ذلك يهم بمغادرة باب البيت، ولكن في اللحظة التي يُحاول فيها ترك الدار يطرق ذهنه خاطر جديد هو التأكد من أن الباب الخلفي مُغلق، فيدلف مرة أخرى داخل الدار ليتأكد بنفسه من الباب الخلفي، ولكنه يتردد أيضًا في الدخول إلى الدار مُعللًا بأن الخادمة تنام بجوار الباب الخلفي، فإذا جرؤ لص على الدخول فستسمعه الخادمة،

ولكنه يخشى أن يحدث ويتمكن أحد اللصوص من الدخول إلى الدار وبذلك تتعرض الخادمة للص فيصيبها بسوء، ثم يحاول أن يكفي نفسه المئونة فيهم بالدخول إلى الدار ليتأكد بنفسه من أن الباب مُغلق فعلًا، ولكنه لا يلبث أن ينتابه التردد فيعود أدراجه مُتعللًا ببعض الأسباب ومُؤكدًا لنفسه بأن الباب مُغلق وأنه تحسسه من دقائق، ثم بعد ذلك يُعد نفسه للرحيل بعد أن يقضي وقته في التردد في توافه الأمور والمسائل، وأخيرًا يترك الدار بعد جهد ومجهود.

ما الذي حدث في نفسية هذا الرجل؟! وكيف اعتلت به الأمور وتطور به الشك؟!

لقد استيقظ هذا الشك في ذهن هذا الرجل من اختلاط الحقائق مع الخيال، ومن المثاليات مع الملموسات، ومن اختلاط المعنوية مع المادية. إن هذا التردد كله مرده الخادمة، وذهن هذا الرجل يتركز على الخادمة فهو يريد الانطلاق إلى الخارج ولكن ميله الشديد لأن يظل بجوار الخادمة يجذبه للداخل، فعقله الناضج يريد به الخروج، وعقله الباطن يلح عليه العودة إلى الخادمة وأن يظل بالدار.

العقل الناضج يقول له «اخرج فأنت قد حكمت المزاليج وأغلقت مصباح الغاز وتأكدت من أن كل شيء على ما يُرام، فما الداعي إذن للعودة بك مرة أُخرى!». وبينما يصر العقل الباطن على العودة إلى الدار مُتذرعًا بأسباب وعلات واهية ويلح عليه في الرجوع إلى الفتاة مُناشدًا إياه

الحب قائلا «إن الفتاه تتمناك فلما هذا التمنع؟! وما الداعي لهذا التعلل أنها تتحرق إنها تلتهب.. عُد إليها... وارجع إلى البيت.. وتملكها بين ذراعيك».

وهكذا رأينا كيف انقلب الحب الكامن في قلب هذا الرجل إلى قلق واضطراب وحيرة، وأن ما من شيء يُمكن أن يمنعه من الاستحواذ عليها، غير الخوف من الضمير، هذا الضمير الذي يقف له بالمرصاد؛ فكأن لسان حاله يقول «ترى أحاول شيئًا معها أم أقلع عنها؟! فالنفس تدفعه والضمير يمنعه».

وهذا الشك أو هذا التردد عبارة عن نزاع بين رغبتين: رغبة العودة إلى البيت ليتأكد من إغلاق النوافذ وإغلاق الباب وبالتالي ليشبع عينيه من منظر الفتاة.

هُناك ملاحظات نذكرها هنا: ذلك أنه كان لوالده قبل زواجه تجارب ومغامرات مع بعض الخادمات، فراح يُحذره (الأب يُحذر الابن) من خطر الخادمات؛ مما رسخ في ذهن المريض أنهن مصدر للشر.. معنى ذلك أنه لو ثارت عاطفته الجنسية نحو أي خادمة تجد مُقاومة عنيفة منه، ومن هُنا ظهر التردد نحو التقرب إليها في صورة من الظنون والمبالغة في المحافظة على الدار، فكأن مصدر هذا التردد هو ما انطبعت عليه نفسيته من خوف الاقتراب من الخادمات أو الفتيات وما يتضارب فيه هذا الخوف من إشباع للرغبات الجنسية.

وثمة لفتة أُخرى على مريضنا هذا.. نجد أن قلبه مُفعم بالخوف، ومرد هذا الخوف هو ما يتردد في نفسه مما قد يعمد إليه أخوه من محاولة إغراء هذه الخادمة، فكأنه يريد بذلك أن يعود إلى الدار ليتأكد من أن أخيه لم يغادر مكانه وأن الخادمة لم تبدأ مغامرتها بعد.

إن كل المترددين المتشككين في الناس يعتقدون أن الذين حولهم يحملون ميولًا وعواطف تُشابه ميولهم وعواطفهم، فالذي يشك في الناس يشك في نفسه فكأن مصدر شكه في الناس هو شكه في نفسه.

إن الغيرة رمز للحب – فأنا أغار على هذه الفتاه لأني أحبها – فلو كانت غيرتي على فتاة أُخرى أكثر من غيرتي على الفتاة التي معي، فمعنى ذلك أن حُبي للفتاة الأُخرى أكثر من حُبي للفتاة التي معي، معنى ذلك أيضًا أن عواطفي تتشعب، فكأني إذن أمام حب مُثلث الأوضاع، أو بمعنى آخر أمام غيرة مُثلثة الأوضاع ويقوم أمام أحد أضلاع هذا المثلث حب أعمى أو غيرة عمياء.

وفى قصتنا هذه، نلمس قوة التعلق بين هذا المريض وبين أخيه وهو التعلق الذي عبرت عنه كُتب علم النفس بأنه عُقدة أُوديب المقلوبة، وهو الحب المُقنع بين الأخ وأبيه أو بين الأخ وعمه، وهو يهدف من طرف خفي وعن طريق غير مُباشر إلى شذوذ جنسي مُقنع.

كما نلمس أيضًا قوة الميل الجارف المُقنع بين هذ المريض أيضًا وخادمته، فكأننا أمام شاب يتعلق بأخيه وبخادمته فلا شك أن الغيرة تزداد

قوتها لو أن أخاه وخادمته اتفقا ضده، حينئذ يصبح فريسة للهزة النفسية المُضاعفة، وهذه الهزة قابعة في العقل الباطن – أعني في اللاشعور – وهي هزة لا يُقدر قيمتها لأنه لا يعرف أسبابها وعلاقتها وكان رد مفعولها عليه فيما يظهر من اضطرابه أو بمعنى آخر تردده وظنونه وشكوكه.

ومن القصص الأُخرى التي مرت أمامي قصة فتاة في ربيع الحياة ينتابها قلق شديد واضطراب عصبي، فهي مثلًا إذا ذهبت إلى أحد المطاعم وتناولت طعامًا ودفعت ثمن أكلها وغادرت المطعم لا تلبث أن تعود إليه مُترددة مُتسائلة هل دفعت الثمن حقيقة أم أنها لم تدفع شيئًا، فتسأل الخادم الذي يُؤكد لها بأنها دفعت ما عليها وبذلك تُغادر المكان، ولكن شعور التردد لا يلبث أن يُعاودها من جديد فتشك في كلام الخادم مُدعية بأن الخادم مُخطئ أو أنه مُتعمد كي يُسبب لصاحب المطعم خُسارة، فقد تكون العلاقة بينهما (بين الخادم وسيده) سيئة.

وهي إذا جلست لتكتب خطابًا على أحد أصدقائها ثم بعد ذلك ألقته في صندوق الخطابات وسارت لسبيلها ومضت فترة لا تلبث أن تتردد في المكان الذي وضعت فيه الخطاب فتسائل نفسها هل هي أرسلته حقًا؟! أم أنها تركته دون أن تضعه في الصندوق!

ولقد حدث مرة أن كانت في حجرة مُغلقة مع أُستاذها الذي يُعلمها الموسيقى فراح في غمرة عاطفية يُقبلها ففقدت صوابها وأُغمى عليها (لأنها أرادت أن تتعامى عما يحدث لها حينذاك) ولما استفاقت راحت تُردد في

حقيقة ما حصل فتتساءل عم لو أن صديقها قبلها حقيقة وأُغمى عليها بعد ذلك أم أنه لم يُقبلها؟!

وتحمل في نفسها رغبة بغيضة نحو والديها فتعتقد بأن الحنان معدوم في قلبيهما وأنهما يُعاملاها بقسوة وغلاظة، فعليها أن تتحمل مسئولية البيت.

وهي تشك في نفسها شكًا عميقًا، ولقد بلغ بها الأمر حدًا أن ظنت نفسها غير عذراء، وهي إذا رأت قارورة أو أي قطعة زُجاجية في البيت راحت تتحسسها، لتتأكد بأنها سليمة غير مكسورة، فإذا تأكدت من سلامتها ووضعتها في مكانها لا يلبث الشك أن يُعاودها مرة أخرى فتعود لتتحسسها.

كما أنها تعتقد أن بعض الشُبان يُطاردونها ويرسلون لها خطابات مُثيرة، ومن أجل ذلك تذهب كل يوم إلى صندوق خطاباتها مُتوقعة خطابًا من ذلك المُغامر الذي يُريد أن يعبث بقلبها، فإذا خاب ظنها في وصول ذلك الخطاب انتابها شيء من التردد في أن يكون بعض الجيران قد أخذ ذلك الخطاب ليكيد لها. وينتابها شيء من الخوف والقلق والاضطراب، ذلك لأنها تتوقع من حين لآخر أن تجيئها زوجة أستاذها الموسيقي الذي تحبه مما قد يُؤدي إلى فضيحة لها.

هذا الشك في كل شيء مرده العقل الباطن والنزعات المكبوتة التي تجيش في صدرها، فهي تتمنى أن تكون حُرة طليقة تُغامر بصراحة في ميدان

الحب الواسع الكبير، وهي شديدة التعلق بوالديها ويظهر هذا التعلق في الكراهية التي تكنها نحوهما، فالكراهية هنا نوع من الحب.

أما شكها في نفسها فمرده الرغبة في الحرية، فكأنها تخشى لو استرسلت في الطريق القائم أن يُؤدي بها السبيل إلى أن تضيع الجوهرة الثمينة، فكأنها تخشى من هذا الطريق وكأنها في الوقت نفسه تتوقع ما يحدث لها من جراء السير في الطريق الأعوج.

وأنتقل إلى قصة أُخرى لشاب طالب بكلية الطب يُنازعه شك عميق في كل شيء يبدو أمامه، ويزداد به الشك حتى بات يشك في نفسه، فهو مثلًا يخشى أن يكون في مُجتمع فيتصرف تصرفًا فيه خدش لكرامته مما قد يسئ إليه وإلى سمعته.

وقد حدث مرة أن أقامت الجامعة حفلة ساهرة فراح يُسائل نفسه عما يكون تصرفه مع زميلاته حينذاك، هل يُمكنه أن يكون مُحترمًا.. وهل يتمكن من أن يُراقص الفتيات بمهارة.. وهل؟! وهل؟!

وكان كل خوفه يتركز في الفشل في ألا يكون رجلًا اجتماعيًا ولما حل ميعاد الحفلة، ودخل الردهة الواسعة، كان يخشى أن يكون مجيئه مُتأخرًا، ولشد ما كانت دهشته أن وجد أنه لم يحن ميعاد المدعوين وكثيرًا منهم لم يأت بعد، ودقت الموسيقى، فتقدم إلى فتاة وهو مُتخوف من أن ترفض مُراقصته، ولكن لم يلبث أن زال خوفه عندما قبلته، فراح يُراقصها في حذر وخوف من أن يدوس على حذائها أو يصدمها، وهو يدور بها في الردهة

الواسعة، وبعد ذلك اشتد به الاضطراب فظن الفتاة سئمته فراح يتكلم بسرعة وعصبية مُعتقدًا أن في حديثه ما قد يغريها على التودد إليه، ثم سكت لأنه خاف من أن يكون قد أثقل عليها فضايقها.

ولما انتهى ميعاد الحفل وأخذ يسير نحو بيته، خطر بذهنه خاطر لم يكن له على بال، فقد أحس بأن حذاءه ضيق فراح يُسائل نفسه عن مدى الضرر الذي يصيبه من جراء ذلك الحذاء الضيق؟! وعن مدى الضرر الذي يكون قد تسبب للفتيات الأُخريات اللائي كُن يُراقصهن؛ فقد خاف ألا تكون خطواته مُنتظمة، وبذلك تسبب في مضايقة بعض صديقاته اللائي كن معه بالحفلة بأن يكون قد داس على أحذيتهن.

هذه المخاوف التي تتجاوب في نفسه تقوم على أساس خرب في ذهن المريض، فلم يكن الحذاء ضيقًا، وهو لم يُؤذ نفسه أو يُؤذ أحدًا آخر، وكل تصوراته تقوم على خيالات لا أساس لها ألبته. يُمكن لنا أن نلمس اضطراب هذا الفتى، ويُمكن لنا أن نلمس التزمت الشديد الذي يعيش فيه، كل هذا نتيجة تعطشه الجنسي.

إن خوفه من أن يحضر الحفلة مُتأخرًا خوف يُعبر عن رغبته في أن يشبع نفسه بأكثر قسط مُمكن من الحفلة من أولها إلى آخرها. أما خوفه من الحضور مُبكرًا فله جذع عميق في ماضي حياته، فقد حدث له وهو طفل صغير في الخامسة من عمره أن دخل مرة حجرة نومه فشاهد خادمته مع صديق لها في موقف غير مُشرف فتراجع إلى الوراء، ومن هُنا ارتدت

الانعكاسات النفسية، فكان الخوف من أن يحضر الحفلة مُبكرًا هو الخوف من المناظر القديمة الراسخة في ذهنه بذكرياتها العاطفية، فكأنه لا يريد الحضور مُبكرًا حتى يعطي فرصة للخادمة للانصراف مع صديقها. ولقد أنبته الخادمة وهو طفل على رعونته وسرعة دخول الحجرة، كل تلك اللفتات الماضية انعكست على حياته الراهنة فبات يخشى التبكير في الأمور.

أما الخوف من أن يكون قد تسبب في ضرر بعض فتيات الحفلة بأن داس على أقدامهن، فمرد ذلك إلى ما يجيش بصدره من ميول نحو النساء وخوفه من أن يرفضنه. فكأن الانعكاسات النفسية تمثلت في حذائه، وكأن لسان حاله يقول «لو أني دست بقدمي على قدم الفتاة التي كانت معي دون أن تظهر الامتعاض أو تُبدي الألم؛ فمعنى ذلك أنها استجابت لعواطفي».

وفي الوقت نفسه كان عقله الواعي يقف له بالمرصاد يُنبهه إلى ما في ذلك التصرف من قحة، وهكذا كان رد فعل تلك التيارات النفسية التي تجيش في صدره هو التردد والحيرة والشك والظن.

هذا الشاب عاش في طفولة مكبوتة فقد حذرته أمه من النساء، وسلطت عليه ضوءًا قويًا ليبتعد عن المرأة، فعاش في حرمان، عاش بين الميل للمرأة وبين الابتعاد عنها، عاش بين حب المرأة إرضاءً لنداء الطبيعة،

وبين البُغض لها إرضاءً لنصائح أمه، ومن ثم ظهر ذلك النزاع في صورة التردد والشك ثم المرض.

أما هذه القصة التالية فعن شاب أراد أن يترك جامعة فيينا ليلتحق بإحدى الجامعات التي في برلين، وفي يوم من ذات الأيام ذهب إلى جامعته في فيينا ليطلب منها أن تُحول أوراقه الدراسية إلى الجامعة الجديدة التي اختارها، كما طلب من جامعته في الوقت نفسه أن تعطيه شهادة بسلوكه ودراسته في الجامعة، وعندما حاول أن يخرج ورقة التحقيق الشخصية ليثبت لكاتب المدرسة أنه صاحب الطلب وليحولها أيضًا إلى برلين ضمن أوراقه المدرسية الأخرى اكتشف أنه أضاع هذه الورقة، فانتابه خوف، فقد خشي أن تسقط هذه الورقة في يد بعض المجرمين فيقترف جريمة ثم يترك ورقة التحقيق الشخصية بجوار جسم الجريمة مما يوقعه في الشر، وبذلك يعتقد الناس أنه هو المجرم الأصلي.

وعلى العموم فقد تعرف عليه سكرتير الجامعة ويسر له مهمته، وعاد الشاب إلى داره وراح يبحث عنها في كل مكان، ولكن عبثًا لم يتمكن من الاهتداء إلى ورقته الضائعة.

وعندما حل به المساء راحت المخاوف تطرق ذهنه في شكل عصبي عميق فأضاعت النوم من جفونه، ثم ازدادت قسوتها حتى أحس كأنه يقترب من حافة الجنون، فقد شعر كأن هاتفًا يُناديه من أعماقه ليُؤكد له بأنه قريب الوقوع في شرك جريمة، وأحس كأن ذلك الهاتف يُناديه بأن

يعمل شيئًا لينقذ نفسه مما هو مُقدم عليه، وأن أحسن وسيلة للتخلص من الشرك هو أن يتصنع الجنون، وبعد ذلك اشتدت به الحالة سوءًا وراح رأسه يدور مع الهاتف وجرفه التيار العميق حتى دار مع الدوامة وسقط في النوم.

وعندما استيقظ الصبح كان كسولًا مُمزق الأعصاب والنفس، ثم ظن أن يكون قد نسي الورقة عند صديقته فذهب إليها عله يجد معها هذه الورقة، ولكنها دُهِشَتْ منه وأنكرت عدم معرفتها أي شيء بخصوصها. ولما عجز عن الاهتداء إلى غايته أسر إلى أمه بمخاوفه فنصحت له بتبليغ البوليس ففعل ما أُمرت به.

وفي اليوم التالي ذهب إلى الجامعة فأخبره السكرتير بأنه ترك ورقته الخاصة بتحقيق الشخصية كي تضم إلى بقية أوراقه المُحولة إلى جامعة برلين؛ فأظهر الشاب دهشته لما حدث ورجاه أن يُطلعه على هذه الورقة ليتأكد من بعض معلومات بها وراح يفحصها بدقة ثم أعادها له مرة ثانية، وغادر المكان وبمجرد أن ترك ساحة الجامعة راحت الشكوك تقفز من جديد إلى ذهنه فقد ظن أن سكرتير الجامعة خدعه في الورقة التي أطلعه عليها بورقة أُخرى.

قد يرمز الشك إلى الماضي أو الحاضر أو المُستقبل، وفي موضوع قصتنا هذه يحمل معنى الشك للماضي، فتساؤله عن الورقة التي ضاعت فيه معنى التساؤل عن حياته الماضية فتُردده السؤال «هل كانت هذه الورقة هُنا أم هُناك؟!» والسؤال عن الحاضر يحمل معنى «هل أحلم أم أنا

يقظ؟! وهذا يعني هل أنا مُوفق في حياتي العاطفية؟! وهل تستجيب المرأة لحُبي أم أنا غير مُوفق غير سعيد» أما سؤال المُستقبل فيهدف إلى تردده وهو يُسائل نفسه قائلًا: «هل أظل في فيينا أم أذهب إلى برلين؟» ويعني هل يجد السعادة العاطفية في برلين أم في فيينا؟! فهذا السؤال يهدف إلى مستقبله الجنسي؟

في ماضي هذا الشاب قصصًا عاطفية كانت تدور فصولها حول الشك في عائلته فكان دائب السؤال لنفسه «هل أنا ابن شرعي أم أنا ابن سفاح جاءت بي أُمي من رجل ليس أبي؟!».

ولقد ارتدت تلك الخيالات والنزعات الآثمة التي تحمل الشكوك في عصبيته، وارتدت على شخصيته وامتدت على تصرفاته الحاضرة، فراح يشك في كل شيء يُقابله وبات المُستقبل أمامه صورة للتردد والظن والشك.

إن الشك مظهر للانفعالات النفسية التي تتناوب قلب المريض، وهي أيضًا رد فعل لأحداث الطفولة. والشك دائمًا أبدًا مرض نبت من صدمة نفسية ثم راح يشيع داءه على كل الجسم، والمصيبة في هذا الداء أنه يُؤدي إلى أن يفقد الظنان سيطرته على حواسه فيفقد قوة التمييز والخيار بين الأمور، وبالتالي يفتقد قوة الإرادة وقلما تثور نزعات مُتضاربة في قلب إنسان مثل المريض بالشك، فهو يحب ويكره في وقت واحد، وهو إذا أراد شيئًا راح يتفانى في مُحاولة إتمامه، وفي الوقت نفسه يزهد فيه ويُبالغ في الابتعاد عنه، والمريض بالشك إنسان يكتمل فيه عامل النضوج والارتقاء في الوقت الذي تنحدر فيه نحو السقوط والانهيار.

الأسرار

لكل إنسان سر خاص لا يريد افتضاحه، ولا يريد أن يعرف به أحد، كما أن من الأسرار من لا يُريد صاحبها أن يثيرها في نفسه أو يعترف بها، وهو إذا تذكرها اشمأزت له نفسه، ويُبالغ الكثير في الاحتفاظ بأسرارهم، وهذا ما يُفسر لنا السبب الذي من أجله يتفانى العصبيون الذين اضطربت نفسياتهم، يتفانون في مُحاولة إخفاء أمراضهم، فهم يعتبروها سرا خاصا، فالمرأة التي بها هوس في اغتسال يديها كل دقائق تُبالغ في إخفاء أمر هذا الهوس عن الناس، وإذا تنبه البعض إلى هذا التصرف راحت تُبالغ في إخفاء السر مُعتذرة بكل الأسباب التي تُبرر تصرفاتها، فتدعي مثلًا بأن النظافة تُحتم عليها اغتسال يديها كل لحظة، وهي إذا تورطت أمام الناس وخافت اكتشاف سرها عمدت إلى تعفير يديها بالتراب، مثلًا كي تتمكن من اغتسالهم، وبذلك تخرج من المأزق الأدبي.

ويُبالغ العصبيون في الاحتفاظ بأسرارهم، اللهم غير الخوف أو الحاجة فهما اللذان يرغمان المريض للإفصاح عن مكنونات قلبه، وفي كل الأمراض العصبية يقبع سر غامض، ويبعث الاضطراب في قلب المريض، والمُصيبة في هذه الأسرار أنها قد تكون غائبة عنه، فيُبالغ في الاحتفاظ بالسر، ومن ثم يتخبط المريض في أحزانه دون أن يدرك هذا السر الذي يلعب دوره في إثارة القلق والاضطراب.

والمريض الذي يشعر بالاضطراب ويذهب إلى طبيبه النفسي ليُعالج حالته، إذا تمكن ذلك الطبيب من كشف الغطاء عن السر الذي يشيع الاضطراب، سرعان ما ينتاب المريض الذعر ويفر دون أن يترك للنفساني فرصة إتمام استخراج هذا السر.

وهذا ما يُفسر لي حضور كثيرين من المرضى يشكون بعض الأحزان النفسية مُتحمسين للعلاج فيُداومون على الحضور فإذا تمكنت أن أصل بهم إلى موضع الداء ولوا مُسرعين؛ فالمريض الذي يريد الشفاء يحدوه ميل التخلص من دائه، فيُحاول أن يزيح الأعباء الثقيلة التي على كتفه إلى طبيبه المُعالج، ولكن رغبته في الاحتفاظ بسره والنضال دون الإفصاح يحول دون ما يريد فتصدم الرغبة في الشيء مع الزهد فيه مما يُؤدي إلى ازدياد حالته سوءًا، فإذا تمكن الطبيب المُعالج من مُساعدة مريضه في الإفصاح عن سره، وتمكن من أن يجعل النزعات القابعة في القاع أن تطفو على السطح، فقد قطع الشوط الكبير في سبيل العلاج.

ولقد مرت علي قصص مليئة بالمخاوف والأحزان ومن ضمن هذه القصص قصة امرأة زوجة أحد الأطباء؛ فقد جاءت إلى مكتبي وراحت تُحدثني عن همومها وقالت بأنها ترددت مرات عديدة قبل تصميم رأيها على المجيء ولكن ظروفي في ذلك الحين لم تسمح لي بفحص حالتها لكثرة مرضاي حينذاك، فاقترحت عليها أن تذهب إلى أحد الأطباء الآخرين أو تنتظر بضع أسابيع أُخرى حتى يُمكن أن أتفرغ لها. ولكنها قاطعتني قائلة:

«أنا لا يُمكن أن أنتظر أكثر مما انتظرت، وكفاني ستة أشهر مرت بي وأنا أُراود نفسي المجيء لك، وبعد ذلك أراك تطردني من دارك».

فقلت أنا لم أطردك.. معاذ الله، ولكني أعرض عليك ما يُمكن لي أن أُساعدك به، وفي الوقت نفسه لا أرى غضاضة في اقتراحي عليك أن تذهبي إلى بعض الأطباء الآخرين، وصديقي المُعالج الذي اقترح عليك أن تذهبي إليه لا يقل عني كفاءة إن لم يكن يفقني في فنه.

- «أنا قد حضرت إليك.. وأريد منك أنت، وأنت بالذات أن تُعالجني، وليس في طاقتي أبدًا الانتظار أكثر مما أنتظر، وإذا لم تُعالجني من أمراضي فأقتل نفسي».

- «إنك تطلبين المستحيل.. وهذا تهديد منك لشخصي، أنتِ في أول الأمر ترددت ستة أشهر وانتظرت كثيرًا، ثم بعد انقضاء تلك المُدة الطويلة تأتين لي وتريدين مني أن أشفيكِ في هذه اللحظة! ماذا لو انتظرتِ قليلًا؟!

وراحت المُناقشة تدور في جو شبه عاصف من الرجاء والتمني، فما أدهشني إلا أن أرى المرأة تركع على رُكبتيها في رجاء وبُكاء، وتمد لي يدها في توسل وذلة وتنتحب في مرارة وحزن وتُهدد بالانتحار. وأخيرًا اضطررت لأن أترك لها الحجرة تعمل فيها ما يروق لها، فقد كان مرضاي الآخرين ينتظرون دورهم بفارغ من الصبر والرجاء.

وقد يتهمني البعض بالقسوة، ولكن ما حيلتي أمام إصرار المرأة على البقاء في هذه الحجرة لتضيع وقتي ووقت المرضى الآخرين مما لم يكن لي حيلة غير أن أتركها وشأنها، وكان بالحجرة المُجاورة مريضة أُخرى فرُحت أفحص أمرها ورحت أقضي معها وقتًا.

وبينما أنا كذلك دخلت علي السكرتيرة في جزع وخوف لتقول لي بأن السيدة التي كانت معي قد خرجت من مكتبي وتسلقت ظهر العمارة حتى وصلت إلى الدور السابع ووقفت على حافة الجدار وراحت تُهدد بالانتحار، فتضايقت لأن تهديدها يشوبه الإخراج المسرحي، فقد تعمدت في تمثيلياتها حتى جذبت إليها أنظار بقية سُكان العمارة.

ولم أجد بُدًا غير الاتصال بزوجها الذي جاء على عجل وراح يُحاول معها وسائله المُختلفة حتى تمكن من أن يأخذها معه بسلام.

وأنتقل إلى تجربة أُخرى تشبه هذا اللون الباهت في هذه القصة الحزينة؛ فقد جاءني شاب في التاسعة والعشرين يحمل معه توصية من أحد أصدقائي، أما مرض هذا الشاب فهو انهيار عصبي قاسى ويلاته مُنذ الطفولة، ولسوء الحظ أيضًا لم يسمح وقتي في ذلك الحين لقبول أي مريض فقد كنت مشغولًا جدًا، فاعتذرت له ولكنه لم يقبل الاعتذار، فاقترحت عليه أن يذهب إلى بعض الأطباء الآخرين في فيينا، ولكنه رفض وأصر على أن آخذ قضيته إلى جانبي ولكني ازددت إصرارًا في الرفض، فخرج من عندي وهو مُكتئب حزين.

ثم راح يُلاحقني بخطاباته المُتتابعة التي تنم عن الرجاء الشديد لشخصي في أن أدرس موضوعه | ، وفي مرة حمل لي البريد خطاب تهديد منه، وفي ذلك الخطاب راح يُحدثني عن رغبته في الانتحار نتيجة رفض العلاج وتحميلي مسئولية وفاته، وطبعًا لم يكن لهذا التهديد أي أثر في نفسي فازددت إصرارًا في رفضي العلاج.

إن هذه القصص التي تحمل بين جوانبها الإملاء والتهديد قصصًا خالية من المعنى ويجب ألا نقيم وزنًا لتهديدات المرضى، فالتهديد بالموت هو نفسه المرض وهو ليس بالشيء الجديد في حياة المريض. وعلى العموم أضع أمام القارئ قصة هذا الرجل ليقرأ ما كتبه.

قال «ابتدأت الأزمة النفسية عندما حدث لي أن أن تعرفت بأحد اليهود، ففي ذلك الحين انتابني شعور من الخوف الشديد فأحسست كأن العالم سوف يحترق وسوف تُدمر المدنية والحياة وسوف يموت أهلي وتهلك أُختي ووالدي. أما كيف جاء ذلك الخاطر إلي ذهني فلا أعرف له سببًا، وفي الوقت نفسه انتابني خوف آخر، فقد شعرت بخاطر يُناديني من أعماقي لأن استل سكينًا وأقتل به هذا اليهودي، فقد تكون معرفته ولعنته هي التي أثارت تلك الخواطر في ذهني, فليس أمامي إلا التخلص منه لأتخلص من أوهامي وأحزاني، وكانت الأسابيع الأخيرة مسرحًا للاضطراب النفسي العنيف، فقد اشتدت بي المخاوف والوساوس».

ثم راح يتحدث عن تدينه العميق وإيمانه بالله، كما راح يتحدث أيضًا عن مرض فقدان الذاكرة الذي ينتابه من حين لآخر، كما راح يتحدث كذلك عن فشله في الحياة العامة وعجزه عن الحصول على لقمة العيش بسهولة لأن وساوسه تُلاحقه باستمرار، وتحول دون استقراره في أي مهنة يمتهنها.

قال الرجل «وينتابني صراع شديد لأن ألقي بما في يدي في وجه مدير العمل الذي أشتغل عنده».

والآن لنُسلط ضوءًا على نفسية هذا الرجل لنجد أن الشعور الإجرامي الذي ينتاب هذا المريض لأن يخدش العالم ويجرح شعور الناس، وهو نفس الشعور الذي ينتابه عندما يأتي إلى عيادتي ويهددني بقتل نفسه، فالشعور الثائر في نفسه دائمًا هو أن يُسبب ضررًا لجميع الناس سواء في ذلك الذين يقدمون له معروفًا أو يُقدمون له شرًا.

وهذا المريض كسولًا لا يميل إلى العمل ويتخذ من أمراضه ووساوسه وسيلة للبطالة والخمول، وشعوره بأن يلقي بما في يده في وجه الذي أمامه إنما هو شعور الناقم على الناس جميعًا، وعلي الذين يُمهدون له الحياة، ويبحثون له على وسيلة الحصول علي لقمة العيش؛ فأشد الناس عداوة له هو ذلك الرجل الذي يطعمه لأن رغبته تنطوي علي كسل وخمول؛ فإذا أنت هيأت له سُبل العيش فكأنك تُهيئ له شيئًا لا يريده، ومن ثم أحس بكراهية عميقة لذلك الشخص الذي يرأسه، وظهرت هذه الكراهية فيما

يبدو منه من انفعال نفسي ورغبة في الاعتداء، أما اشتعال الحرائق التي يتحدث عنها فمرده أحداث الطفولة التي ولت، فهو شقي في حياته تُطارده التكاليف فبات بلعن الحياة التي يعيش فيها لأنها لم تقدر على تهيئة السعادة له وبات راغبًا في أن يعيش في ظلام.

والحرائق رمز للطفولة الأولى فولادة الابن يصحبها صراخ وضجيج، وإضاءة الشموع. فالحرائق تُمثل فكرة العودة إلي الطفولة، أعني فكرة التخلص من مسئوليات الحياة وجمودها.

إن هُناك الكثير من المسائل التي تثور في عقل الإنسان أشبه بالطلاسم، ولكنك متى تمكنت من فك هذه الطلاسم فقد تمكنت من فك الرموز التي تقف أمام النفس البشرية لتحول دون سيرها في الطريق السليم.

الرجة النفسية

سوف أبدأ هذا الباب بقصة امرأة مُتزوجة ولها أطفال تشعر بقلق واضطراب وحيرة وتردد، وتزداد حالتها سوءًا إذا رأت شعر أحد الناس محلولًا، وهي إذا كانت تأكل مثلًا ورأت أحَدا أمامها يأكل في طعام، ثم سقطت شعرة في الأكل سرعان ما ينتابها مغص شديد وأحست أمعاءها تضطرب وتشتد حالتها ألمًا وانتابها اصفرار شديد، وتخشى أن تفقد رشدها وتسقط مغمى عليها، على أن أهم ما يُثير أعصابها إنما الخوف من أن ينتهي بها الطريق إلي الجُنون، وبالتالي يُؤدي بها الجنون إلى أن تلقي الأواني التي أمامها في وجوه الناس الذين يكونون أمامها أو أن تسرع إلى النافذة فتلقي بنفسها منها وينتهى بها المطاف إلى الانتحار.

ولقد قالت لي بأنها ترحب بالجنون وأنها تُريد أن تعرف مدى نظرة الناس لها وهي مجنونة، ففي ذلك يثير اهتمامها ويبعث النشوة إلى قلبها.

وعندما بدأت معها قصة التحليل والعلاج قالت لي إنها تحس أنها بلهاء غبية وأن عقلها ينقصه الذكاء العادي، وكانت تتساءل عن مدى ما يُقدمه طبيب إلى امرأة غبية، فعلاج الأغبياء لا يجدي في شيء، خصوصًا وأن الغبي لا يفهم أو يدرك أو يُميز شيئًا عما يدور حواليه، ثم راحت تُؤكد لي بأن مُحاولاتي معها لن تجدي شيئًا ولن يتقدم بها العلاج خطوة واحدة.

الواقع أن اعتقادها بأنها غبية بلهاء – كان له أثر كبير في علاجها – فقد أوحت إلى نفسها أن تكون غبية بلهاء وراحت تُمثل الدور الذي يدل على جمود الذهن لتقنعني بصحة ما تقول – هذا الاعتقاد – مرض آخر علينا أن ننتزعه من ذهنها، على أن مرد هذا الاعتقاد التعلق الشديد بالمرض والتمسك الشديد به وعدم الميل إلى الشفاء والتمادي في الألم والمُبالغة في الاحتماء فيه.

وعلى بساط البحث عن حياتها الماضية تمكنت أن أدرك سبب العلة التي كانت توحي لها بالبلاهة والغباء وأن هذه العلة مدفونة في الماضي البعيد، فقد حدث لها وهي طفلة أن كانت تسير في أحد أزقة القُرى فرأت طفلًا، يعري نفسه أمام بعض النساء، وكان يلوح على الطفل سيماء البلاهة والغباء، وكان موضع سخرية الأطفال الآخرين الذين كانوا يشيرون إليه في استهزاء.

وفي ارتمائها في أحضان البلاهة والغباء إنما تُحاول تمثيل الدور الذي كان يلعبه هذا الطفل الغبي، فكأن البلاهة في ذهنها تعفيها من المسئولية، وهي دائبة الشك في كل ما يحيط بها، ولقد امتددت شكواها حتى شملت نفسها فكانت تتساءل فيما لو أنها عملت شيئًا كان من شأنه أن يسئ إليها وإلى سمعتها، كما كانت تتشاءم من المستقبل المُعتم أن يضل بها الطريق فتأتي أمرًا سيئًا.

ولقد دلتني دراستي لها أن ماضيها لوثه، فقد زلت قدمها مرة فكانت فريسة لذئب، ومع أنه مضى على هذه الحادثة أكثر من عشرين عامًا، ومع أنها نسيتها إلا أنها ظلت راسخة في العقل الباطن.

وقد ارتدت آثار تلك الفعلة على حياتها الراهنة في لون من الشك، فكأن شكوكها في ماضيها كانت نوعا من الندم والتوبة وطلب الغفران، أما شكوكها في المستقبل فخوف من العودة إلى الزلل.

ولفتة أُخرى على حياتها ونحن على بساط البحث في نفسيتها نجد أن هذه المرأة تتنازعها رغبتان: الرغبة في أن تعيش شريفة مُنزهة عن الخطايا، والرغبة في أن تشبع نفسها من الحياة ومن الوجود، وأمام هاتين الرغبتين كانت حياتها مسرحًا للاضطراب، وقد بدا هذا الاضطراب في رغبتها أن تلقي بنفسها من النافذة؛ ففي ذلك معنى لأن تلقي بنفسها إلى الأماكن الواطئة، أعني أنها تُريد أن تهبط إلى ما هو دون الإنسانية وتشرب من الكأس الرخيص.

أما الجنون الذي يحدوها فذلك لأن الجنون يهدف إلى التخلص من المسئولية، فالمرأة المجنونة التي تأتي عملًا مُشينًا امرأة غير مسئولة، وفي الجنون إشباع للنزعات الدفينة التي تعيش في أعماق اللاشعور، ويحدو هذه السيدة رغبة بأن تلقي بالأطباق التي أمامها في وجوه الجالسين.

ومعنى ذلك أن هذه المرأة تعيش في كبت، ولقد جال في ذهنها أن الذين يحرمون عليها النور الأحمر هم الناس الذين يعيشون حولها مما يخامر

ذهنها من ميل إجرامي مرده الضغط الذي يفرضوه عليها، فكأن الغيظ من تقاليدهم والكراهية منهم هو الذي أودى بها إلى أن تتمنى لهم الزوال، وبالتالي ارتد هذا الشعور على نفسها فباتت تضمن السوء لهم، وأزاح لنا التحليل النفسي الستار عن قصة الشعر الذي يشيع في نفسها الحزن والألم، وأن مرد ذلك يعود إلى الماضي العميق الذي يرسب في قاع نفسها.

وتتلخص قصة الشعر في أنه حدث أن كانت تجلس هذه المرأة في حديقة دارها وكان ابن أختها يلعب في الحديقة فوجد سُلمًا خشبيًا فراح يحمله من مكان إلى آخر يتنقل عليه، وكانت تنظر إليه بشيء من الحسد فتصادف أن سقط السلم على الطفل وأعمل فيه جرحًا كبيرًا في رأسه فانفجر الدم بغزارة وأغمى عليه، ولم تطق المرأة هذا المنظر فأغمى عليها هي الأخرى، ولما استفاقت وجدت نفسها ترقد في السرير والحمى تأكل جسمها فراحت تلوم نفسها على نظراتها المسمومة بالحسد والغيرة للطفل الصغير مما أدى إلى سقوطه وإصابته.

شأن هذه المرأة شأن كل العصبيين الذين يعتقدون أن لهم مقدرة خفية في إنزال اللعنات على الذين يكرهونهم، فلو أنها كانت أكثر عطفًا مع الطفل الصغير لما تسببت في ضرره، ومن ثم راحت تُؤاخذ نفسها على جمود قلبها وانعدامه من الحنان.

وبمرور الزمن تغير مظهر السلم في ذهنها المريض وفي ذاكرتها وحل محلها خيال من خطوط مُتوازية ترمز إلى السلم، ثم تطورت تلك الخطوط

المُتوازية في ذهنها إلى الشعر، ومن هنا بات منظر الشعر مما يثير أعصابها ويبعث الخوف إلى نفسها لأن مرده السلم والخطر الذي تسبب فيه جرح الطفل.

ولقد دلنا التحليل النفسي أيضًا أن هذه المرأة كانت في طفولتها شديدة التعلق بأبيها، كما أظهر التحليل أيضًا أن هذا التعلق بأبيها كان مما يقلقها فتمنت له الموت حتى تتخلص من هذا التعلق، فلما مات فعلًا اضطربت حالتها النفسية فقد اعتقدت أن السماء تستجيب لها وأن موته كان جراء تمنياتها، وبذلك راحت تُؤاخذ نفسها وتلومها واعتقدت في نفسها أنها امرأة شريرة تبحث عن الشر فكرهت نفسها وبغضتها وراحت تتمنى لها الموت جزاء ما اقترفته ضد أبيها ومن ثم بدت النزعات الإجرامية في صورة رغبتها في الانتحار.

ولقد كانت طفولتها مع أمها مملوءة بالصدمات النفسية، فقد دأبت أمها على مُعاقبتها أمام الملأ إذا أتت جرمًا فكانت تأمرها بأن تركع ساعات على ركبتيها مواجهة للحائط وأن ترفع يدها إلى أعلى، وبالطبع كان مرد هذه القسوة أن أضمرت الابنة الكراهية لأُمها فباتت تنظر إليها نظرة المظلوم الذي ينتظر الفرصة بغريمه، ومن ثم راح يخاطر ذهنها صور الانتقام منها فكرهتها وتمنت زوالها من الوجود.

وقد خلقت هذه المُعاملة القاسية في قلب الابنة الميول الماسوشية، أعني أن أُمها قتلت فيها روح الكرامة والإباء ووضعت في نفسها بذور

الذلة والضعة والانحطاط، فلما كبرت ارتدت تلك النزعات على نفسيتها فباتت تبحث عن الأساليب التي ترى فيها وسائل التعذيب لنفسها، ومن هُنا تمنت الموت لنفسها لأن الموت لها هو أكبر أنواع التعذيب.

وكان لهذه المريضة أخت، على غرارها كانت باسمة مُتلألئة سعيدة في زواجها، ولقد كانت مريضتنا تنظر إلى زوج أختها بشيء من الظن، فقد رسخ في ذهنها أن زوج أختها غير مُخلص لزوجته، فكانت تتحداه من أجل خيانته التي تتصورها.

أما مرد ذلك التحدي ففي الواقع لما يجيش في قلب هذه المريضة من الغيرة لأختها فقد كانت تحسدها لتوفيقها في الحياة وفي الزواج.

وثمة سبب آخر للنزاع مع زوجة الأخت ذلك أن هذه المريضة كانت شديدة التعلق بأختها، فكأن التحدي جاء نتيجة الغيرة عندما ترى أُختها تُبادل زوجها الحب دون أن تشركها في شيء من عواطفها. وكان ينتابها ميل شديد للاستحواذ على حاجيات أختها، هذا الميل فيه معنى الارتداد نحو الطفولة، فالأطفال الصغار أنانيون بالطبع يميلون للاستحواذ على كل شيء تقع عليه أعينهم، وهذه المريضة، وإن كبرت إلا أن أحداث الطفولة ظلت عالقة بذهنها، فكانت تميل للاستحواذ على أشياء أختها لتشبع ميول الطفولة الساذجة في ذهنها، وثمة سبب آخر لهذه الأنانية هو أن هذه المريضة كانت كثيرة التفكير في زوج أختها فكانت تنتابها الغيرة عندما يأتي من الخارج حاملًا معه الهدايا، وكان هذا الميل للاستحواذ على أشياء أُختها

بمثابة إشباع للرغبة الدفينة في نفسها للحصول على الأشياء التي عجزت عن الحصول عليها باللين.

ولقد تمنت الموت لأختها وزوجها فكانت تتصورهما وهما في سبات عميق، هذا التمني مرده الحرمان من السعادة، فهي شقية في حياتها، ومن أجل ذلك تمنت الشقاء للناس جميعًا حتى يتساووا معها.

ولقد حدث مرة أن مرض أخوها فحدثتها أمها عن حزنها وأخبرتها بأن مرض أخيها قد يشتد عليه مما قد يُؤثر على حياته القادمة ويحرمه من الزواج في مستقبله فانتاب المريضة شيء من السعادة لأنها وجدت في المرض والحرمان شيء من الرغبة التي تجيش في نفسها من طلب الشفاء للناس جميعًا.

ولما توفي أبوها تولى ابنه (شقيقها) أمر المتجر الذي كان يملكه الوالد وبالتالي ازداد نفوذه عليها فقد بات أشبه بالوصي عليها.

وكانت إذا راحت تتحدث إليه عن أحزانها النفسية أغلق باب الكلام لأنه كان يعتقد أن أمراضها هوس مُفتعل يجب أن تقلع عنه مما أدى إلى زيادة الضغينة، فكرهته وتمنت موته ودعت الله أن يضع "الشعيرات" في طعامه حتى تنتهي حياته وتتخلص منه، وتشاء الصدف أن يمرض أخيها فعلًا ثم يموت، فانتاب المريضة ألم شديد لأنها اعتقدت أن الله قبل دعوتها فاستيقظ ضميرها وراح يُؤنبها بشدة على سوء تصرفها، فكانت تقضي ليلها ساهرة في فراشها تنتحب بشدة، وطبعًا ازدادت حالتها العصبية توترًا

وازدادت حالة الانهيار النفسي سوءًا، وبموت أخيها اعتقدت بأن لها قوة خارقة مُنزلة من السماء، وأن لها سلطانا كبيرا في هذه الدنيا تستمد جبروته من الله مباشرة، كما ازداد إحساسها بنفسها أنها تنطوي على الشر وحب الجريمة.

وطبعًا عبس وجهها وغاصت منه البسمات وأصبحت صورة جامدة للنفس العنيفة، وكانت تثور إذا رأت أمها تبتسم أو تضحك أو رأت أختها تداعبها الحديث، ولقد حدث مرة أن جاءت سيرة أخيها الميت أمام أحد الضيوف فأظهر الموجودون حينذاك أسفهم للوفاة، ثم راحوا يتحدثون عن أسباب الوفاة وتقارير الأطباء فانتابتها أزمة قلبية وسقطت مغمى عليها ولم تستفق من غفوتها إلا في اليوم التالي.

ولما تزوجت المرأة لم تجد السعادة التي كانت تنتظرها، فقد عاشت مع زوجها في جمود وحرمان من التجاوب العاطفي، ومما زاد في تعاستها أن زوجها كان ضعيف الجاه والنفوذ ضئيل الدخل، فكان عليه وعليها أن يُكافحان في الحياة في صبر طويل وشقاء مُستمر.

وكان في كل هذه العوامل مُجتمعة ما مزق الهدوء في دارها الجديدة وكما كان الزواج تجربة خاطئة في نظرها كان أيضًا كابوسًا مُزعجًا في نظر الزوج، فكان الزوج يعيش في ركن مُظلم بينما الزوجة تعيش في ركن آخر أشد ظلامًا.

ومما زاد الطين بلة أن هذه المريضة عاشت مع والدها فرأت في والدها صورة لما يكون عليه زوجها المُقبل؛ فلما تزوجت من رجل تعوزه دقة الحياة لا يقيم وزنًا لمطالبها أو مطالب بيتها، سقطت من عينها الصورة المثالية التي كانت تتمناها في الزوج. وانهار أمامها الخيال الذي بنته في عهد الطفولة، ومن ثم ازدادت حالتها سوءًا واشتدت بها الاضطرابات والأمراض.

وطبعا اجتمعت تلك العُقد النفسية على قلبها حتى باتت غير قادرة على احتمال هذه الأمراض، ووجدت الشكوك والأوهام سبيلًا إلى نفسها وبات زوجها في الحلقة تحت الضوء فراحت تصب عليه كل انفعالاتها النفسية، فكانت تتمنى أن تلقي بقطع الزجاج على المارة حتى يقع زوجها تحت المسئولية ثم راحت تُفكر في كل ما من شأنه أن يبعث الشر إلى زوجها.

إن علاج هذه المرأة يتوقف على نزع الأفكار الشريرة التي تضطرب في أعماق قلبها، هذه المرأة صورة صادقة للنفس المهزوزة التي تعيش على بقايا خربة في ذهن مريض؛ فأحداث الطفولة وتتابع الانفعالات النفسية التي تقوم على خيالات كانت من الأسباب التي أدت إلى اضطرابها.

هذه قصة فتاة في الثامنة والعشرين من العمر، مُطلقة من زوجها الأول ومخطوبة إلى رجل آخر، لها وجه صبوح ونظرات باسمة، ويُغطي وجهها حيوية نضرة وهي فنانة تمتهن صناعة النحت ونشطة، تذهب في

الصباح المُبكر إلى عملها فتقضي طيلة يومها في مجهود ذهني وجسماني كبير دون أن تشعر بالتعب أو الملل وضعت قضيتها أمامي فقالت بأنها تشكو ألمًا في ظهرها وأزمة قلبية حادة واضطراب في أعصابها وتنميل في جسمها.

حدثنا تاريخها فقال بأنها – وهي طفلة – كانت ترتدي ملابس الرجال فقد كانت تنظر إلى أزياء النساء كشيء يثير الاشمئزاز في نفسها وكانت تلعب ألعاب الأطفال الذكور، وكانت تكره ألعاب الإناث وكانت تعتقد أن أُمها تعاملها بجفاء فلا تقيم وزنًا لعواطفها أو شعورها، ومن جراء ذلك راحت تشعر بالألم، ولما بلغت السن راحت تقيم الصداقات مع النساء الأخريات.

وتقدم للفتاة خطاب كثيرون راحوا يتنافسون للحصول على يدها ولكنها كانت ترفضهم، الواحد بعد الآخر فكانت إذا تعرفت برجل سرعان ما نفرت منه وقطعت علاقتها به.

وعاشت من جديد وحدها، فقد كانت فكرة صداقة النساء تُسيطر على ذهنها وتملأ كيان عقلها، وأخيرًا تمت خطبتها على رجل كان يبدو أمامها لين الطبع ناعم المنظر جميل المظهر.

ومع أن الرجل كان يبدو أمامها دونها في المستوى العلمي والأدبي، إلا أنها صممت على الزواج به، ومع أنها كانت تعرف أن حبها له ضئيل لا يكفي أن يظلل عش الغرام ويقيم السعادة في بيت الزوجية، إلا أنها آثرت

أن يكون الرجل لها وصممت على الزواج، ومع ذلك أحست بشيء من الحزن العميق في قرارة نفسها.

وكان الزوج شبه عاطل وكانت هي نشطة، فكانت تخرج في الصباح المُبكر لتُؤدي واجبها اليومي، أما هو فكان نؤوم الضُحى يظل قابعًا في فراشه فلا يتركه حتى يتأكد من انتصاف النهار فيهم في خمول وكسل، ومع ذلك كانت تشعر بالسعادة والغبطة من خموله، بينما هي كالنحلة دائبة العمل.

وكانت إذا خرجت إلى عملها في الصباح ارتدت ملابس أشبه بملابس الرجال، لأن صناعة النحت لا تحتاج إلى زركشة الملابس، وكانت إذا خرجت معه في المساء اكتفت بارتداء الملابس البسيطة.

وكان يتنازع هذه المرأة عاطفتان، أو بمعنى آخر كانت شخصيتها تنقسم إلى نصفين، فقد كانت تحب زوجها حب العبادة، فتدخل دارها مُتلهفة عليه كثيرة الشوق إلى لقائه، وفي مرات أُخرى تحس ببغض شديد نحو ظله، لا تود الاقتراب منه.

وبمرور الزمن اتسعت تلك الهوة التي تفصل بين شخصيتها واتسع فارق الحب الممزوج بالبُغض له، وظهرت المرأة في نزاع شديد، وطبعا كان لهذا النضال النفسي أثر كبير على أعصابها فباتت تشعر بالتعب والأرق، وفي ثورة عاطفية صممت على الافتراق والطلاق منه.

ومع أنها كانت تعرف أنها بذلك الطلاق تُمزق أعصابها وتطعن قلبها، فحُبها الشديد له كان عنيفًا وقويًا، إلا أنها آثرت الافتراق، فقد رسخ في ذهنها أن الفنانة يجب أن تعيش لفنها وأن حُبها يجب أن تعطيه كله إلى المهنة النبيلة التي تمتهنها. ومع أنها افترقت عنه إلا أنها ظلت على صلة به، فكانت تتحدث معه كرجل إلى رجل، وكان النزاع العنيف بين الرغبة والرهبة، أعني بين الميل له والزهد فيه ما أثار كل العواصف في ذهنها وعمل على زيادة تحطيم شخصيتها، وأدى انقسام شخصيتها إلى النتائج الآتية:.

اللهفة الشديدة إلى شيء يحدوها لتهرب بنفسها من الواقع وتعيش في خيال، أو بمعنى آخر لتُحقق في الخيال ما عجزت لحصول عنه في الحقيقة فدأبت على المشروبات الروحية وراحت تتناولها بكثرة حتى أصبحت أسيرة عادتها، كما اتسعت الهوة التي تفصلها عن العالم فباتت تعيش في عُزلة، وبالتالي تمادت في شذوذها فأصبحت تصرفاتها وحركاتها وإيماءاتها غير عادية واشتد تعلقها بالنحت والفن، وكأن النحت والفن في ذهنها بمثابة قنطرة تقوم بين الخيال والحقيقة، أعني قنطرة تقرب بها وجهة التفاهم بينها وبين الناس، وكان أثر الكحول على نفسها أن مكنها بأن تخرج أحسن التابلوهات الفنية، ذلك لأن الكحول حجب العقل الواعي ومكنها من أن تغوص في أعماق العقل الباطن لتخرج الى الناس صورًا مُعبرة عن الفن العميق.

ولعبت الخيالات دورًا كبيرًا في نفسها، فقد كانت تتصور أنه يُمكن لها أن تُؤذي الآخرين وهذه الخيالات تدل على مرض السادزم أعني مرض القسوة الذي يجيش في صدرها، فقد تمكنت بفتنتها وجمالها من أن تغري شابًا من الطبقات الراقية، ثم راحت تنكل به أشد التنكيل وكان مرد ذلك إلى ما يجيش في خيالها من أنه يُمكن لها أن تُقدم الخير والشر في وقت واحد.

وبعد هذه المغامرة العاطفية أخرجت تمثالًا بديع الصُنع يُعبر في وقت واحد عن القسوة والحنان. ولقد قاست الكثير من حبها لأُمها، أعني أنها قاست مرارة عُقدة أوديب المقلوبة، فقد أحبت أمها من أعماقها ولكنها ظنت أنها لا تُبادلها الحب فانقلب حبها لأُمها إلى بُغض شديد.

ولقد ارتدت مظاهر هذا الانفعال النفساني بين الحب والبُغض، ارتدت على نفسها وعلى مُعاملتها لزوجها فباتت تحبه أشد الحب وتكرهه أشد الكراهية، وارتد هذا الانفعال أيضًا على مُغامراتها العاطفية في إغرائها للشاب الذي تعرفت عليه، فكانت تُقدم له الحب والبُغض في وقت واحد، وارتد كل ذلك على حياتها العملية فبدت كل لوحاتها الفنية تتمثل فيها مظاهر الحنان القوي ومظاهر الغلظة الشديدة.

أما أمراض الشذوذ الجنسي التي كانت تجيش في نفسيتها فقد عملت دورها في سبيل انهيارها النفسي، فهذه المرأة كان يحدوها ميل شديد لأن تتخلص من هذا المرض، وكان الوقت نفسه يحدوها نفس الميل في سبيل

التمتع بهذا المرض، ومن ثم باتت نفسيتها مسرحًا للنزاع الشديد بين رغبتين مُتضادتين، وقد ارتدت صورة هذه النفسية على حياتها العامة وعلى مُعاملتها لزوجها، فكانت تميل إلى زوجها لأنه يُمثل الرغبة التي تهدف إلى التخلص من الشذوذ الجنسي، بينما في الوقت نفسه كانت تكرهه لأنه يقف أمامها بمثابة حائل يحول دون ميولها الشاذة.

وكانت لا ترى غضاضة في العمل بحثًا عن لقمة العيش، بينما زوجها ينتظرها في البيت فقد كان في هذا التصرف مظهر الشذوذ، فهي في خروجها تُمثل الرجل الذي يكدح من أجل زوجته، بينما بقاء زوجها في الدار في انتظارها يُمثل المرأة في أجل معانيها.

وعندما انطفأت نفسها وعاشت في عُزلة تامة عن العالم راحت تلقي بنفسها في أحضان الماضي في عهد الطفولة، فباتت أشبه بالأطفال في تصرفاتها، تغريها الكلمات الخداعة التافهة وتغرها الألوان البراقة أكثر مما تغرها حقائق الأشياء، وقد انعكست هذه النزعات التي تجيش في نفسيتها على زوجها، فكانت تستكين إليه إذا تبسم لها فتعطيه كل حياتها، وكان إذا قطب حاجبيه وقفت أمامه في عناد وتحد.

وكانت تُعامل زوجها مُعاملة الأم لابنها، ومرد ذلك العودة إلى الماضي فالأطفال الإناث الصغار يحبون اللعب بالدُمى مُتخيلين أنفسهم أُمهات صغار، وهذه الدُمى بمثابة أطفالهم، ولقد انعكست تلك النزعات

النفسية على حياتها مع زوجها، فكانت تراه بمثابة الطفل الصغير الذي في حاجة إلى عطفها وحنانها.

ويجيش في صدر هذه الفتاة حب للمثاليات، وكان هذا هو الدافع القوي ليجعلها تعيش في عزلة، فقد رأت في العالم الذي حواليها وحوش، وأكد هذا الرأي أمامها تصرفات الذين حولها معها؛ فأمها تبغضها، وزوجها أناني، نؤوم الضحى يطمع في أن تطعمه، وزبائنها الذين يسخروها للعمل طوال اليوم مُقابل دراهم ناس لا يُقدرون الإنسانية.

ومن ثم بغضت هذا العالم الكريه، وكان يجيش في صدرها أحيانًا نزعات لأن تحطم التماثيل التي خلقتها.

أما خطيبها فيلح عليها سرعة الزواج، ولكنها كانت تتمنع لسببين، الأول: أنها تعطف عليه وتعتقد في نفسها أنها لن تكون زوجة صالحة له، ومن أجل العطف والإخلاص له راحت تُسوف حتى لا يقع في المأزق – والسبب الثاني أن خطيبها هذا رجل ثري ويريد منها أن تقلع عن فنها وهو كفيل بإيوائها، أما هي فلا ترى ما يرى، فقد استحوذ عليها المزاج الفني بشكل قوي.

أما مرض السادزم أو القسوة التي في قلب هذه الفتاة فمرده أبوها، فقد تعود أن يُعامل أطفاله بقسوة ويضربهم بغلظة وقد رسبت الشدة في نفس هذه الفتاة. ولما سلط ضوءًا قويًا على هذه الفتاة ظهر الخوف بأجل معانيه في نفسيتها. فقد ترددت في التحليل والعلاج، فهي تتمسك

بأمراضها وأوهامها وأحزانها وتخشى أن تفقد هذه الأمراض والأوهام والأحزان فتفقد المزاج الفني المُستمد من الأمراض والأوهام والأحزان، إن مرد هذه الاضطرابات النفسية الهزات التي تصيب الإنسان في حياته.

وفي القصة التالية تأكيد لما أقول، وهي لامرأة في ربيع الحياة مُتزوجة ولها ابنة ولكنها لا تحب زوجها ولا تحب ابنتها.. حدثتني عن نفسها فقالت بأنها كانت تعجب كل الإعجاب برجلها وهو خطيبها قبل أن يتزوجها، ولكن ليلة الدخلة كانت من الليالي البغيضة فكان جافًا في مُعاملته لها فبغضته، وعندما ولدت ابنتها أحست ببغض نحوها.

في هذه القصة نجد أن جفاف الرجل وعد تقديره لشعور زوجته قد أثار الحفيظة ضدها فانقلب الحب العنيف له إلى بُغض شديد، ذلك لأن مُعاملته لها في الليلة الأولى التي كانت خالية من عوامل اللياقة والأدب فكرهته وكرهت ابنته من أجله، ومع أن الرجل أصبح فيما بعد أكثر تهذيبًا وأكثر رقة وعاطفة إلا أن الزوجة عجزت عن أن تنسى فظاظته الأولى فغضبت عليه وكرهته وصبت كراهيتها على ابنتها هي الأخرى.

وقد تكره الأم أحيانًا ابنها قبل مجيئه إلى العالم، ويُفسر لنا ما نراه من أن كثير من النساء الحوامل يُصابون بدوار أو إغماء أو ميل للقيء في خلال الشهور الأولى من الحمل مرده ذلك أن في هذه الأشهر الأولى ينتاب المرأة ميل لعدم الحمل فتميل إلى القيء.

وهذا القيء يرمز إلى رغبة منها لتتخلص من الجنين الذي في بطنها، كما يتخلص الإنسان من الطعام الفاسد بتقيئه فلا عجب إذن أن ترى أمهات يخالفن غريزة الطبيعة بكرههن أولادهن.

وأذكر قصة شاب جاء يشكو لي همًا لازمه طول حياته مُنذ طفولته وحاولت مع الشاب أن أصل إلى السر الذي يزعج نفسه ولكني لم أتمكن، وفي يوم جاء لي ليقول بأنه اكتشف ذلك السر؛ فقد حدثته أمه بأنها كانت زاهدة فيه مُنذ ولادته وأنه جاء بالرغم منها، فقد كرهته قبل ولادته، وأن والده كان يُعاملها بقسوة، ومن أجل ذلك راحت تُفكر في الطلاق، ولكنها أحبته بعد الولادة وكانت شديدة التعلق به، فقد وضعت فيه آمالها التي فقدتها مع والده.

وأن مُعظم المُجرمين أطفال غير مرغوب فيهم، ولعلك لاحظت وأنت تكتب القصص للناس أو تقرأ الروايات أن أبطال الجريمة من اللقيطين أولاد الشوارع، فهؤلاء يتنازعهم الميل الإجرامي ويخرجون على الله وعلى المجتمع.

وعلى العموم فمرد الرجات النفسية والهزات العاطفية، الطفولة وأحداث الماضي.

الفهرس